القسم الثاني
التوثيق المبكر للسنة والحديث

الفصل الثالث: تقييد الحديث

الفصل الرابع: نظرية التدوين المتأخر للحديث

الفصل الخامس: تقييد الحديث المبكر

تمهيد

في هذا الجزء الذي قسم إلى ثلاث فصول، قد أجرينا محاولة للقيام بدراسة منظمة لمسألة تسجيل السنة والحديث.

ويبدأ هذا الجزء بمناقشة عن وضع الكتابة بصفة عامة قبل الإسلام وبعده وفي الفصل الثالث أوضحنا أنه منذ أن كانت الكتابة يكتنفها الغموض في فترة ما قبل الإسلام وبعده فإن سنن النبي ﷺ لم تحفظ فحسب في الذاكرة ولكن كتبها بعض الصحابة المتعلمين وكذلك بعض التابعين. وفي هذا السياق. فإن التقارير المتضاربة والمتعلقة بتحريم كتابة سنة النبي ﷺ أو جوازها قد تم مراجعتها بدقة متناهية.

وناقشنا أيضاً في هذا السياق مصطلحات منوعة، وكذلك عبارات شكلت أسس نظرية أحدث تسجيل للحديث والتي كان من الممكن أن يساء تفسيرها وتأويلها، وأتْبعنا هذا بمناقشة عن معاني الاستخدام الأول للعديد من المصطلحات والتي استخدمت كوعاء للحديث. وأظهر بحث هذا الموضوع أن مصطلحات: صحيفة وكتاب... الخ لا تعني بالضرورة «مجموعات صغيرة أو مذكرة عن الحديث» كما كان يعتقد أحياناً.

أما الجزء الثاني من الفصل الخامس فقد تم تخصيصه للمجموعات المكتوبة سواءً أكانت صغيرة أم كبيرة والخاصة بعلماء الحديث الأوائل.

الفصل الثالث
تقييد الحديث

1ـ المدخل

2 ـ مكانة الكتابة العربية في مطلع الإسلام.

3 ـ السجلات المكتوبة لعرب ما قبل الإسلام.

أ ـ الصحيفة، والمجلة، والرَّوْسم.

ب ـ النصوص الدينية.

❖ التوراة والإنجيل

❖❖ كتاب دانيال

❖❖❖ كتاب أنوخ.

ج ـ كتب أهل الحنيفية والصابئة

4 ـ مزيد من الأدلة على معرفة المنطقة العربية للكتابة قبل الإسلام.

أ ـ مدارس.

ب ـ كُتَّاب النبي ﷺ.

ج ـ الكاتبات من النساء.

د ـ تدريس فن الكتابة.

هـ ـ الكامل.

و ـ المعاهدات.

ز ـ النقوش والكتابة بالنقش.

ح ـ الشعر، وتاريخ مآثر الحرب، وعلم أنساب القبيلة.

ط ـ الخطابات الشخصية.

ي ـ التسجيل بين حين وآخر.

5 ـ مكانة الكتابة بعد الإسلام.

6 ـ الكتابة والذاكرة.

أ ـ الجدل حول الذاكرة والكتابة.

ب ـ المؤيدون والمعارضون لكتابة الحديث.

جـ ـ أصل منشأ الجدل حول الكتابة والذاكرة.

7 ـ بين مؤيدي تدوين الأحاديث ومعارضيه

أ ـ عينة من الأمثلة.

ب ـ التوافق.

❖ الحظر المؤقت ونظرية البطلان

❖❖ الحظر على فئة من الناس فحسب.

❖❖❖ حظر التدوين الرسمي.

❖❖❖❖ حظر تسجيل القرآن والحديث في نفس الصحيفة.

ج ـ الغرض من كراهة الكتاب.

❖ المحافظة على نقاء النص القرآني

❖❖ عدم التنافس مع القرآن الكريم.

❖❖❖ عدم انصراف الناس عن القرآن الكريم.

8 ـ صحة النصوص المقيدة للكتابة.

9 ـ أسباب كراهة تدوين الحديث.

الفصل الثالث
تقييد الحديث

1 ـ المدخل:

يسودُ اعتقادٌ عام بأنَّ الأحاديث لم يمكن الحصول عليها حرفياً كما تركها النبي ﷺ إلا بعد القرن الثاني، أو الثالث من وفاة النبي ﷺ، وحاول علماءُ الغرب، وكذلك أئمة المسلمين أن يتغلبوا على هذه الفجوة الممتدة حوالي أكثر من مائة سنة بالتأكيد على أنَّ الأحاديث التي وصلتْ إلى جامعي الأحاديث في القرن الثاني أو الثالث كانت من خلال الانتقال مشافهةً لهذه الأحاديث، أو السنن من جيل إلى جيل.

ومما لا شك فيه أن المستشرقين من أمثال Sprenger, Muir, Funk, Horovitz and Goldziher، اعترفوا بوجود بعض السجلات القليلة المكتوبة من الأحاديث في الحقبة الإسلامية الأولى، واعتبروا هذه السجلات مجرد عوامل مساعدة للذاكرة، وتوصل العلماء المسلمون للرأي نفسه فيما يتعلق بالسجلات المكتوبة، ولكن على نقيض المستشرقين كان اعتماد علماء المسلمين الكامل على ذاكرة ناقلي الحديث؛ في حين أن المستشرقين يعتقدون أنَّ الذاكرة الإنسانية غير معصومة من الخطأ.

ويبدو من الغريب أن نؤكد على أنَّ الأحاديث ظلت في صدور الصحابة، والتابعين، وبعد مئة سنة تم نقلها إلى الكتب.

والحقيقة التي لا يدانيها شك أنه على الرغم من عدم وجود تنظيم رسمي من جانب النبي ﷺ بخصوص ذلك للحفاظ على هذه الأحاديث بالمداد الأسود أو الأبيض، إلا أن الأحاديث تم كتابتها أثناء حياة النبي ﷺ.

وإذا تناولنا هذه القضية تاريخياً، فإنَّ تسجيل الأحاديث في هذه الفترة المبكرة كان يتم بصورة غير رسمية، في حين كان أعمال النبي ﷺ يتم رؤيتها وتقليدها بدلاً من كتابتها وتسجيلها. إنَّ كثيراً من الأمور كانت تدون ليحفظها الصحابة عن ظهر قلب، ويرددونها في صلاتهم شفهياً، أما الأدعية البسيطة فكان يمكن حفظها بسهولة دون كتابة، أما الأدعية الطويلة فكان يجب كتابتها وتدوينها لا للحفظ فحسب بل يحتفظ بها كمرجع

للمستقبل خشية أن يرتكب المؤمنون أخطاء عند إقامتهم للشعائر، وأحياناً كانت تُسَجَّل بعض المسائل التشريعية وخاصة القوانين المتعلقة بالزكاة لأنها كانت تحظى بأهمية كبيرة، وكان من الضروري تسجيلها سواءً كان ذلك في بداية عَهْدِ الرسول ﷺ. أو ما بعده، عن طريق الصحابة أنفسهم.

ومرة ثانية أثيرت قضية نقل الصحابة لأقوال النبي ﷺ أو سلوكه في تصرفاتهم.

وأخيراً وليس آخراً، لقد وُجدت مجموعة من الصحابة المخلصين اعتادوا أن يرقبوا كل فعلٍ للنبي ﷺ ويستمعوا إلى كل كلمة من كلامه ويسجلوها ويحاولوا الاحتفاظ بسجل لأقواله وأعماله إما مشافهة، وإما بتدوينه كتابةً إذ أن شخصية النبي ﷺ الفريدة استلزمت ضرورة الحفاظ على تعاليمه، وهذه المهمة قام بإنجازها صحابة مخلصون. كرسوا أنفسهم لذلك فهم لم يحفظوا أقواله ﷺ عن ظهر قلب فحسب بل سجلوها بالمداد الأسود والأبيض.

ويقول MACDONALD: «نحن لدينا أدلة عن هؤلاء الأصدقاء المترجمين لسيرته الذاتية والذين قاموا بتسجيل كلمات النبي ﷺ، كما قالها»[1].

ونتوقف عند هذه النقطة ونتساءل: إذا كانت الأحاديث قد حفظت بالمداد الأسود والأبيض... لماذا لم تصلنا؟

إن الإجابة على هذا السؤال بالنفي أو بالإيجاب في الوقت نفسه!

فإذا أجبنا بالنفي فنقول: إن السبب في هذا يرجع إلى عدم توافر وسائل ذلك سواءً المواد اللازمة للكتابة كما سميت، أو عدم الرغبة في حفظها بالذاكرة.

أما إذا أجبنا بالإيجاب فيمكن أن نقول: إن السبب الأساسي لعدم وصولها إلينا هو عنصر الزمن وتلف ورق البَرْدي، ورَداءة مواصفات مادة الكتابة قبل أن تصل إلينا بفترةٍ طويلة.

وقبل أن ندخل في مزيدٍ من المناقشات حَوْلَ موضوعِ كتابةِ الحديث بصفةٍ خاصة، من الضروري أن ننظر إلى وضع الكتابة عموماً في المنطقة العربية عشية ظهور الإسلام.

---

(1) Muslim Theology: Macdonald.

2 ـ مكانة الكتابة العربية في مطلع الإسلام:

إن الاعتقاد السائد بصفة عامة أنه في حين كانت الكتابة العربية في جنوب الجزيرة العربية وصلت إلى أوْجِ تطورها على يَدِ سلالة تُبَّع الحاكمة[1]، كانت أُمِّيَّةُ شمال الجزيرة وصلت إلى حالة يُرثَى لها لدرجة أنه في مطلع الإسلام كان يوجد حوالي سبعة عشر شخصاً فحسب في مكة عَرَفوا القراءة والكتابة[2]، بينما كان الوضع في المدينة أسوأ حالاً إذ لم يتجاوز عدد من يقرأ ويكتب أصابع اليدين[3].

ويبدو أنَّ الخَلْفِيَّةَ التي ذكرناها لم تعطنا صورة كاملة عن الأمية في فترة ما قبل الإسلام خاصة في مَكَّةَ التي كانت تعدّ في ذلك الوقت قبلة العالم إذ أنها كانت محطة لمرور القوافل، ومركزاً دينياً، ومركزاً للمبشرين بين النصارى واليهود، ولكي تتوفر لنا صورة جلية عن وضع الكتابة العربية في هذه المنطقة، فمن الضروري أن نرى كيف ومتى بدأت هذه العملية في الحجاز. وطبقاً لمقولة البلاذري فإنَّ أهل الحجار تعلموا فن الكتابة من أهل أنبار، وهم بدورهم تعلموها من أهل الحيرة والمعروفة بالكوفة حالياً.

وبتتبع تاريخ الكتابة نقول: «في نهاية القرن الخامس كان هناك ثلاثة رجال من قبيلة «طيء» يسمون مرامير بن مرة، أسلم بن سدرة، وعمير بن جدرة اخترعوا حروف الهجاء العربية في مكة، وعلموها لأهل الأنبار، وهم بدورهم علموها لأهل الحيرة.

وكان مبشر بن عبد الملك الذي كان دائم التردد على مدينة الحيرة قد تعلم كتابة العربية هناك. وبعد أن تعلم فن الكتابة حضر إلى مكة وعلمها لسفيان بن أمية، ولأبي قيس بن عبد مناف»[4].

ومن هنا نرى أن الكتابة دخلت الحجاز عن طريق الحيرة التي كانت مركزاً ثقافياً من عصور سحيقة، والقصة المشهورة للشاعرين: المتلمس، وطرفة في عهد عمرو بن هند (554 ـ 570م) تبين أن الكتابة كانت معروفة للعرب في تلك الأيام، وتحكي هذه القصة أن عمرو بن هند أعطى للشاعرين كتابين مختومين، وطلب منهما أن يسلما الكتابين إلى

---

(1) مقدمة ابن خلدون (418).

(2) فتوح البلدان (457)، والعقد الفريد (4: 242 ـ 243).

(3) أدب الحديث لصديق زبيري (41)، ومناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني (1: 356).

(4) فتوح البلدان (456 ـ 457)، بينما يقال أن أول من عرف الكتابة بالعربية الأسماء التي ذكرناها، وانظر معرفة علوم الحديث للحاكم (187).

واليه ربيع بن حوثرة في البحرين، ومع أن الشاعرين اعتقدا أنهما كتابا توصية بأن يجزل لهما العطاء، ولم يعرفا أنهما يحملان خطاباً للحكم عليهما بالإعدام، وعرفنا من هذه القصة أن المتلمس الذي انتابته الشكوك في محتوى هذا الكتاب وقضى فترة شبابه في الحيرة، قرأ الكتاب ولهذا هرب؛ أما الشاعر الفقير طَرَفَة الذي رفض أن يفتح الخطاب المختوم وحمله إلى ربيع فقد أُعدم بلا رحمة[1].

ولا نعرف بالتأكيد ما إذا كان هذان الكتابان اللذان أعطيا للشاعرين كانا مكتوبين باللغة العربية أم لا، ولكن كل الاحتمالات تؤكد أن اللغة التي كُتِبَ بها الخطابان كانت اللغة العربية.

ووجدنا أيضاً أنَّ عديّ بن زيد كان مستخدماً للكتابة باللغة العربية في بلاط كسرى الأول الفارسي[2] في تلك الأيام، ولهذا فالاحتمال المؤكد أن اللغة العربية قد استخدمت في بلاط الحكام العرب في الحيرة حيث كانت في الواقع تدرس ويتم تعليمها.

وعلى سبيل المثال فقد علَّم حمّاد بن زيد ابنه اللغة العربية والكتابة أولاً ثم الفارسية بعد ذلك[3].

وتعلُّم اللغة العربية في الحيرة واضح من تقرير آخر يقول أن الملك بهرام جور (420 ـ 438) والذي علمه المنذر مع كثير من عرب الحيرة قد تعلم الفارسية والعربية؛ بل وحتى اليونانية، كذا الكتابة بكل هذه اللغات[4].

وظلت الحيرة مركزاً للعلم فترة طويلة؛ فقد ذُكر أنه عندما غزا خالد هذه المدينة وَجَدَ الشباب في الأديرة منهمكين في مخطوطات مكتوبة[5].

وفي تقرير آخر رأى خالد بَعْضَ الناس يتعلمون فن الكتابة في أنبار[6].

---

(1) الشعر والشعراء لابن قتيبة (1: 131، 134، 137، 138، 142)، والأغاني طبعة (RUDOLPH)، (21: 194 ـ 196).

(2) دراسة في أدب المخطوطات العربية لنبيهة عبود (6)، والأغاني (2: 101 ـ 103).

(3) الأغاني (2: 100 ـ 101).

(4) تاريخ الفرس (1: 262).

(5) نشأة الكتابة.. في (Jasb)، (375 ـ 376)، مصادر الشعر الجاهلي (51).

(6) مصادر الشعر الجاهلي (51).

وفي مكة يمكن أن نتوقع انتشار المثقفين قبل ظهور الإسلام بوقت كبير ولأنَّ هذه المدينة كانت مركزاً دينياً وتجارياً منذ حوالي 350م[1].

ومع هذا فمن الطبيعي أن تتم بعض الصفقات التجارية بصورة مكتوبة بين الناس الذين يعرفون فَنّ الكتابة، ويحتفظ التاريخ بأسماء كان بإمكانها أن تكتُبَ في القرن السادس الميلادي، وعبد المطلب جد النبي ﷺ والمتوفى سنة 587م كان واحداً من هذه الأسماء. ويُذْكر أنه ذات مرة كتب من مكة إلى أقاربه من أمه في المدينة ليساعدوه في الحصول على ميراثه من أبيه في مكة[2]، ويُذكر أن وثيقةً كُتِبَت بخطٍّ يشبه إلى حدٍّ كبير خط عبد المطلب وُجِدَتْ في خزانة المأمون[3]، بل وحتى قبل عبد المطلب، كتب جده الأكبر قُصَيّ خطاباً إلى أخيه رزاح[4].

وعلى الرغم من انتشار الكتابة العربية في الحجاز، فالمؤرخون المسلمون الذين تأثروا بوجهة النظر التقليدية يرجحون أن الفترة التي سبقت ظهور الإسلام كانت خالية من أي تقدم ثقافي ملموس لدرجة أنهم أطلقوا عليها «أيام الجاهلية» ووضعوا نظرية تدل على أن المثقفين في بداية الإسلام كانوا قلة قليلة لدرجة أنهم كانوا يعدون على أصابع اليد، ويذكر دكتور حميد الله العالم المسلم بأنه كان هناك من خمسة عشر إلى عشرين رجلاً متعلماً من أهل مكة بينما في المدينة كان العدد أقل بكثير. ولكن طبقاً لتقرير البلاذري الذي يبدو أنه كان أول المصادر بالنسبة لتقرير حميد الله فهو يؤكد أنهم كانوا سبعة عشر رجلاً وذكرهم بأسمائهم[5].

---

(1) دراسة في أدب المخطوطات العربية (11).

(2) حياة محمد لموير (i, pp, v iii)، وتاريخ الطبري (Annales)، (1: 1084 ـ 1088).

(3) الفهرست (7).

(4) طبقات ابن سعد (1: 1: 38).

(5) وأسماء المتعلمين الذين ذكرهم البلاذري حسب ترتيبهم هم:

(1) عمر بن الخطاب	(2) علي بن أبي طالب	(3) عثمان بن عفان
(4) أبو عبيد بن الجراح	(5) طلحة بن عبدالله	(6) زايد بن أبي سفيان
(7) أبو حذيفة بن عتبة	(8) حاطب بن عمرو	(9) أبو سلامة بن أبي سفيان
(10) أبان بن سعيد	(11) خالد بن سعيد	(12) عبدالله بن سعد
(13) حويطب بن عبد العزى	(14) أبو سفيان بن حرب	(15) معاوية بن أبي سفيان
(16) جهيم بن الصلت	(17) العلاء بن حضرمي	

وأسماء المتعلمين في المدينة ذُكروا بأسمائهم وعددهم، إذ يعتقد دكتور زبير صدِّيقي ـ وهو عالم هنديّ معاصرَ ـ أنَّ عدد عرب المدينة الذين استطاعوا الكتابة كانوا أقلّ من اثنى عشر رجلاً[1]، ويبدو أنّه توصل إلى هذه النتيجة بناءً على تقرير لابن سعد الذي ذكر تسعة أسماء من هؤلاء الأشخاص[2].

ولكن إذا ألقينا نظرة على التاريخ الأدبي والثقافي للعرب قبل الإسلام، فيمكن أن نتوقع أن يكون عدد المتعلمين أكثر من الأعداد المذكورة سابقاً، فعلاوة على الشعر كان هناك وصف المعارك، وعلم الأنساب، والأدب الجاهلي، والديني في هذه الفترة، كل هذا يشير إلى مرحلة متقدمة من الأدب للعرب قبل الإسلام، وسوف نحصي بعض السجلات المكتوبة لهذه الفترة لنبيِّنَ مآثر العرب في مجال الأدب.

3 ـ السجلات المكتوبة لعرب ما قبل الإسلام:

أ ـ الصحيفة، والمجلة، والروْسَم:

في فترة ما قبل الإسلام كانت الأقوال المأثورة، والأمثال، والحكمة المأخوذة من الأقوال، والأحداث العظيمة تسجل بالمداد الأبيض والأسود، وأوعية هذه المعلومات كانت تعرف بالصحيفة، وجمعها: صحف، ومجلة وجمعها: مجلات، وروسم، وجمعه: رواسم، واستخدم النابغة الذبياني لفظ المجلة ليشير إلى رسالة معلم ديني[3].

في حين يشير القرآن إلى مخطوطات إبراهيم وموسى بقوله: ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾[4].

وهذا يبين أن كلا من رسائل المسيح، ومخطوطات إبراهيم وموسى تم الاحتفاظ بها في شكلٍ مكتوب.

---

(1) أدب الحديث (41).

(2) طبقات ابن سعد (3: 2: 23، 59، 79، 91، 100، 136، 142، 148)، وهذه الأسماء كما ذكرت: أبو عبس بن جبر، أبيّ بن كعب، عبدالله بن رواحة، أوس بن خوالي، حدير، منذر بن عمرو، أسيد بن حدير، سعد بن عبادة، ورافع بن مالك.

(3) دراسة في أدب البرديات العربية: نبيهة عبود (1: 48).

(4) القرآن الكريم (الأعلى: 19).

ومن المتعارف عليه في تلك الأيام تسجيل الأقوال المأثورة والأمثال في الصحيفة، أو المجلة.

وفي الواقع فإنَّ تسجيل السنن النبوية بعد ذلك في الصحف، والمجلات كان استمراراً للطريقة البدوية القديمة في الاحتفاظِ بالأقوال المأثورة[1].

والأقوال المأثورة والتي كانت تسمى عادة (حكمة) كان متعارفاً عليها في عَصْرِ النبي ﷺ، لأنَّه كان من الطبيعي مقارنتها بتعاليم محمد ﷺ، والقصة التالية تعطينا مثالاً لذلك: فقد ذكر أن محمداً ﷺ دعا سويد بن الصامت لاعتناق الإسلام، ورفض سويد دعوته قائلاً: «ما عندك هو ما عندي» وعندَ سؤالِهِ عما عندهُ ذكرَ أنَّ عندهُ مجلة لقمان = وكانت هذه المجلة عبارة عن نسخة مخطوطة باليد لِحِكَمِ وأمثالِ لقمان، ثم طلب منه النبي ﷺ أن يقرأ هذه المجلة، وعندما قرأها ذكرَ له النبي ﷺ أنه يملك ما هو أغلى وأثمن من المجلة، ألا وهو «القرآن الكريم»[2].

ويتضح من هذه القصة أن الأقوال المأثورة للقمان احتُفظَ بها في كُتَيب سُمِّيَ «مجلة لقمان»، هذا الكتاب ربما كان منتشراً في القرن الأول من الهجرة لأنه ذكر عن العالم وهب ابن منبه المتوفى سنة 116 هـ أنه قرأ فصولاً عديدة من هذا الكتاب[3].

وناهيك عن مجلة لقمان نجد مراجع من الصحف الأخرى والمجلات التي تحتوي على الأقوال المأثورة = (الحكمة) لأشخاص غير مشهورين؛ فعلى سبيل المثال نجد أن بشير ابن كعب كان عنده صحيفة تحتوي على الأقوال المأثورة ويذكر أنه ذات مرة عندما روى عمران بن حصين (المتوفى سنة 52هـ) قولاً للنبي ﷺ قارنه بشير بن كعب بالحكمة الموجودة في صحيفته، وحينئذٍ عاتبه عمران قائلاً: «مالي أراك كلما رويت لك قولاً للنبي ﷺ، تتلو عليَّ من صحيفتك؟!»[4].

---

(1) إن صحيفة الصحابة كانت معروفة أما بالنسبة للمجلة، وجمعها مجلات فهي التي كانت تحتوي على أقوال النبي ﷺ ونجد تقريراً يقول أن أنس بن مالك المتوفى سنة 93هـ دَوَّن سنن النبي ﷺ، وأعطى مجلته هذه (كتيب مكتوب في صحيفة من الورق العريض) إلى تلاميذه لينسخوها ويحفظوها.

(2) تاريخ الطبري (1: 1208)، وسيرة ابن هشام (283 ـ 285).

(3) كتاب المعارف لابن قتيبة (27).

(4) صحيح البخاري (4: 139) في كتاب الأدب.

واستمرت عادة تسجيل الحكمة في الصحيفة لفترة طويلة بعد ذلك ولهذا روي أن معاوية طلب من أحد رجال حاشيته «حبيب بن مسلمة الفهري» أن يدوِّنَ ذلك في كتابه لأنَّها حكمة[1].

وبالنسبة للصحف التي كانت منتشرة عند العرب قبل ظهور الإسلام، يحسم القرآن الكريم هذه القضية بشهادته ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾[2].

ويقول ابن المنجم في هذه القضية ويكتب في سنة (131 هـ)، قائلاً: بأن هذا الكتاب كان موجوداً بين اليهود والعرب[3].

ومرجعه في ذلك القرآن الذي يقول إن الكتاب كان معروفاً عند العرب.

وبغض النظر عن المجلة والصحيفة، فإن ذكر الكتب المعروفة كالروسم وجمعه رواسم، هذه الكتب احتوت على قوانين عرفية معينة للمجتمع العربي[4].

ومن الجدير بالذكر أن نقول: إن الصحيفة والمجلة ليستا بالضرورة كتيباً في حجم المخطوطة، فقد كان استخدامها أرحب مجالاً لتشرحا فكرة، أو مجموعة أفكار، أو حتى كتاباً، وبالنسبة للمجلة ذكر أن النبي ﷺ قال: «كل كتاب عند العرب كان مجلة»[5].

ب ـ النصوص الدينية:

❖ التوراة والإنجيل:

تشير المصادر إلى وجود كثير من النُّصوص الدينية المعينة قبل الإسلام عند العرب[6]، وأهم وثيقة في هذا المجال هي الترجمة العربية للميثاق أو العهد القديم والجديد.

---

(1) العقد الفريد (4: 110).

(2) القرآن الكريم (الأعلى: 19).

(3) نشأة الكتابة من مجلة Journal of the Asiatic Society of Bengal صفحة (378).

(4) لسان العرب (12: 241). Jones, Williams, on the, Arabic Asiatic Researches, p: 15.

(5) النهاية لابن الأثير (1: 201).

(6) الحيوان (1: 69 ـ 70، 88)، وفجر الإسلام لأحمد أمين (199).

وعلى الرغم من عدم تأكدنا ما إذا كانت الترجمة العربية للإنجيل كانت متوفرة للعرب في القرن السابع والثامن الميلادي أم لا؟[1].

ومع أننا عرفنا بوجود وثائق خاصة بالديانة المسيحية، واليهودية قبل ظهور الإسلام في الجزيرة العربية بوقتٍ كبير، فإنَّ رواية امتلاك الفاروق عمر «لكتاب دانيال»[2] وتوبيخ النبي ﷺ يبين أن هذه الأشياء كانت متداولة قبل ظهور الإسلام.

وهذا الأدب الديني الذي كان موجوداً بشكلٍ مكتوب يمكن استنتاجهُ من التقرير الآتي: حيث ذُكر عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنه كان يملك عدداً من الكتب خاصاً بأهل الكتاب التي اعتاد أن يدرسها باهتمام كبير[3]، يبدو أن هذه الكتب كانت عبارة عن صحيفة من الورق كبير الحجم تحتوي على أجزاء من الإنجيل. ومن الصعب أن نقول ما إذا كانت هذه الكتب قد كتبت بالعربية أو بالسريانية، ولكن الاحتمال الأكبر أنها كتبت بالعربية بسبب وجود المبشرين المسيحيين الذين يتكلمون اللغة العربية في المنطقة.

---

(1) والسؤال: هل كانت هناك ترجمة عربية للإنجيل وقت ظهور الإسلام؟ وأن هذه الترجمة كانت غير مشوهة؟

في حين يعتقد «Arther Voobus» بوجود هذه الترجمة للإنجيل قبل ظهور الإسلام، وهي التي قام «Gospel» بنقلها، فقد شك «Grav» بوجود مثل هذه الترجمة قبل القرن التاسع الميلادي.

(cf. Papyri, i, p. 50, referring Arthur Voobus, Studies in the History of the Gospel Text in Syriac (Corpus scriptorium Christianorum orientalium; Subsidia III (Louvairn, 1951) pp. 6-9, 156-136; and Georg Graf, Geschichte der Christichen arabischen Literature I (Citta del Vaticano, 1944, pp. 27-52).

وهكذا يعتقد بعض العلماء أن أول ترجمة عربية للمخطوطة المسيحية «الإنجيل» بدأ في القرن الثامن الميلادي.

(CF. Kilgour,, The Cospel in many years, pp. 10 – 11)

ويتفق (M. J. degoeje) مع (Noldeke) الذي علق قائلاً: «لا توجد ترجمة للإنجيل، أو جزء منه سواء في حياة النبي ﷺ أو في حياة أجداده».

(CF. Semitic Studies, ed. G.A. Kohut, Berlin, 1897, p. 185)

أما بخصوص دراسات «Gisbon» و«Gotze» في هذا الموضوع تقول نبيهة عبود: إن نتائج دراستها حددت بدء تطور الأدب العربي المسيحي في حوالي القرن السابع الميلادي على الأقل، ولكن لأن هذه النتائج مجرد دليل بلغة قديمة، فلا تعدّ بالتالي كنتيجة نهائية (دراسة في أدب البرديات)، ص (1: 48).

(2) سنن الدارمي (1: 115 ـ 116).

(3) طبقات ابن سعد (4: 2: 2) و(7: 2: 189).

ووجدنا مراجع لمجموعة من الناس اعتادوا أن يكتبوا وينقلوا نصوصاً من التوراة والإنجيل[1] ـ ومع أن هذه النصوص كانت مجرد أجزاء إلا أنه تبين أن هذه المخطوطات كانت مدونة كتابةً.

ولنأخذ بعض الأمثلة لذلك: فمالك بن دينار المتوفى (سنة 130هـ) لم يقرأ التوراة فحسب بل كثيراً ما نقل أجزاءً من الإنجيل باللغة العربية[2].

ولم يكن ورقة بن نوفل مجرد قارئ للكتب فحسب[3]، بل كان لديه أجزاء منسوخة من الإنجيل[4].

ونقل ابن إسحاق العديد من الأمثال التي من الواضح أنها كانت من الإنجيل[5].

❖ كتاب دانيال:

ومن بين النصوص الدينية لهذه الفترة كان كتاب دانيال الذي يحتوي على كثير من الأشياء، وكثير من الكتابات التاريخية المشكوك في صحتها، وكان هذا الكتاب مشهوراً في حياة النبي ﷺ.

ومن المحتمل أنه كان الكتاب الذي نَسَخَهُ «عمر» وتَعرَّضَ بسببه لغضب النبي ﷺ.

وقصة ذلك أنَّ عمر نسخَ كتاباً للمعتقدين في هذه المخطوطات، ونَقَلَهُ على جِلْدٍ أحمر، وأحضره للنبي ﷺ، فمجرد أن رآه النبي ﷺ في يد عمر، غَضِبَ وَوَبَّخَ عمر لِنَسْخِهِ هذه المخطوطة بدلاً من نقله القرآن[6].

وعلى الرغم من أن هذه القصة لا تعطينا مؤشراً بأنَّ هذا الكتاب الذي نسخَهُ «عمر» كان كتاب دانيال أم لا؟ فإنها تُوحي بذلك ورواها «الفاروق عمر» نفسه عندما كان خليفةً، وتم إثارتها في مناسبة مماثلة، إذْ حدثَ ذات مرة أنَّ رجلاً من قبيلة عبد القَيْس

---

(1) طبقات ابن سعد (7: 1: 161)، والحلية (2: 45).

(2) حلية الأولياء (2: 358 ـ 359).

(3) سيرة ابن هشام (1: 121، 143، 149، 153، 205).

(4) صحيح ابن حبان (1: 32).

(5) السيرة (1: 149 ـ 150).

(6) سنن الدارمي (1: 115 ـ 116)، وتقييد العلم (52).

نسخَ نُسْخَةً من كتاب دانيال وعندما علم عمر ذلك استدعاه وطلب منه أن يمزق هذا الكتاب وهدده بعقابٍ شديد لو أنه رأى شخصاً آخر قرأه، ثم روى عمر قصته[1] التي تشير إلى ذلك وربما يكون قد حَدَث هذا ليبيِّنَ أنَّ النبي ﷺ لم يوافق على هذه التصرفات، أو ربّما ليؤكد على أن الرجل أي عمر كان يتصرف وفقاً لسنَّةِ النبي ﷺ.

وعلى أي حال، من الواضح من هذه القصة أنَّ كتابَ دانيال وُجِدَ بشكلٍ مكتوب في فترة ظهور الإسلام، إذ لم يكن قبل ظهور الإسلام.

ووجد مرجع آخر لهذا الكتاب في تقريرٍ ذكرَهُ عَمْرو بن ميمون المتوفى (سنة 74هـ). حيث قال: كنت جالساً في صحبة العديد من الأصدقاء في الكوفة عندما جاء رجل ومعه هذا الكتاب «وسأله الحاضرون: ما هذا الكتاب»؟ وأجاب: «كتاب دانيال»[2].

إن هذه التقارير التي تشير بوضوح إلى هذا الكتاب وجدت لتبين أن كتاب دانيال في كل الحالات كان موجوداً في حياة محمد (عليه الصلاة والسلام) لأنه إذا كان موجوداً في عهد عمر فمن باب أولى أن يكون موجوداً في حياة النبي ﷺ، فضلاً عن أن العصر الذي سبق النبي ﷺ كان أكثر ملاءمة لهذا النوع من الآداب عن العصر الذي تلاه.

ويجب أن نضع في أذهاننا أن كتاب دانيال الذي يتناول تفسير الأحلام بصفة خاصة يختلف عن الكتاب الذي ناقشناه قبل ذلك تفصيلاً، هذا الكتاب لم يوجد في عهد النبي ﷺ، طبقاً لأبحاث شبرنجر (Sprenger).

❖❖❖ «كتاب إنوخ»:

لقد وجد كتاب ديني آخر في حقبة ما قبل الإسلام يسمى كتاب إنوخ. ويرى شبرنجر أن ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية تمت قبل عصر النبي ﷺ[3].

---

(1) تقييد العلم (51 ـ 52)، مقدمة ابن خلدون (436)، ونشأة الكتابة ص (312) من مجلة المجتمع الآسيوي من البنفال بالإنجليزية. راجع المصادر.

(2) المصدر السابق ص (312)، وتقييد العلم (56 ـ 57).

(3) نشأة الكتابة من مجلة المجتمع الآسيوي البنفال (JASB) ص (376).

جـ ـ كتب أهل الحنيفية والصابئة:

قد يكون من الغريب أن نتساءل من هم المتحنفون[1]؟ يرى البعض أنّهم طائفة من الموحدين الذين ظهروا في الجزيرة العربية ولم يكونوا يهوداً أو مسيحيين[2]، ولكن طبقاً للآيات القرآنية يقول «البروفيسور. وات» Watt «أن المتحنفين» هم أتباع ديانة مثالية جديدة ظهرت في الجزيرة العربية فهم ليسوا بطائفة ولا ضرب من الناس لهم وزن تاريخي هام![3]

فإذا نحينا جانباً هذا السؤال عنهم وعما إذا كانوا مسيحيين أو يهوداً وموحدين، فالمؤكد أنهم مجموعة من الرجال يحملون معتقدات معينة، وعن هذه المجموعة من الرجال سواءً أسميناهم «المتحنفون» أو نسبناهم إلى أي اسم آخر ذكر أنهم كانوا يملكون أنواعاً «من الكتيبات المكتوبة بالعبرية والسريانية والعربية»، ويذكر الذهبي[4] أنهم اعتادوا أن يسافروا من مكان إلى آخر بحثاً عن المعلومات الدينية للديانات اليهودية والمسيحية، ويوضح هذا التقرير أن دعوتهم الدينية كانت بين المسيحيين واليهود العرب قبل الإسلام، ويبدو أن المتحنفين كانوا مهتمين بالمعلومات الدينية، وكان لديهم بعض السجلات المكتوبة[5].

وذكر أيضاً أن الصابئة كانوا أيضاً يحوزون بعض الكتب عن معتقداتهم وكانوا يشكلون مجتمعاً صغيراً معلنين إيمانهم بالتوحيد القائم أساساً على الفلسفة اليونانية[6]، وكانت فرصتهم في امتلاك بعض الكتيبات أعظم من غيرهم وذلك طبقاً لتعريف كلمة «صابئ»، وهذا المصطلح الذي عُرفوا به كان حرفياً يعني الشخص الذي يقرأ ويكتب الكتب[7].

---

(1) المتحنف هو من يميل إلى الحق، ويستقبل قبلة البيت الحرام، على ملة إبراهيم عليه السلام. المترجم.

(2) محمد ومكة، تأليف «WATT»، ص (162)، وصحيح البخاري (3: 16) في مناقب الأنصار.

(3) محمد ومكة «WATT»، ص (162)، عالم الإسلام (20: 124)، طبعة (1930).

(4) سير أعلام النبلاء (1: 86).

(5) المصدر السابق.

(6) محمد ومكة لـ: «Watt»، ص (28).

(7) دراسة في أدب البرديات العربية (2: 6)، و(Referring Hamadani's Al-IKLIL, p. 17)

4 ـ مزيد من الأدلة على معرفة المنطقة العربية للكتابة قبل الإسلام:

أ ـ مدراس:

مدراس، أو مدراش كان مكاناً يتم فيه تعلم الديانة اليهودية وفن الكتابة، وكان تعلم اللغة جزءاً من المنهج أيضاً[1].

وكان أبو حارثة الذي كان معروفاً بمعلوماته الدينية الغزيرة في الإمبراطورية الرومانية[2] قد قرأ الكتب اليونانية، في حين تعلم زيد بن ثابت اللغة العبرية في هذا المدراس[3]، ويقال إن النبي ﷺ، وأبا بكر، وعمر قد زاروا مدراساً يهودياً في المدينة[4].

ولو ألقينا نظرة على وظيفة هذا المدراس يمكن أن نستنتج مباشرة أن الكثير من الأدب المكتوب في ذلك الوقت كان من إنتاج هذه المؤسسة الدينية التربوية، ويبين أيضاً المناخ الأدبي الذي كان سائداً في الجزيرة العربية قبل الإسلام.

ويمكن لنا أن نستنتج من المعلومات التي هيأتها لنا المصادر التاريخية، في ذلك الموقف بأنَّ الكتابة كانت مستخدمة في فجر الإسلام وكذلك الإشارة إلى كُتَّاب النبي ﷺ، والكاتبات من النساء في الحقبة الإسلامية الأولى يعطينا دليلاً قاطعاً على شيوع الكتابة في الفترة الأولى من ظهورالإسلام، ومصطلح «كامل» الذي انطبق على هؤلاء الذين عرفوا فن الكتابة يعطينا دليلاً آخر على مكانة الأدباء في هذه الفترة.

ب ـ كُتَّاب النبي ﷺ:

بدون الدخول في جدل عقيم عما إذا كان محمد ﷺ متعلماً أم لا[5]؟ سنلقي نظرة على الصحابة المتعلمين الذين كانوا مهتمين بكتابة القرآن الكريم، فإنَّ بعض الكُتاب كانوا

---

(1) فتح الباري (4: 171).

(2) السيرة (401).

(3) دراسة في أدب البرديات العربية (2: 258).

(4) السيرة (383، 388، 394)، وصحيح البخاري (2: 294) في كتاب الجزية.

(5) يشهد القرآن بأمية محمد ﷺ (انظر القرآن الكريم: العنكبوت: 47) على الرغم من أنه كان من السهل بالنسبة لمحمد ﷺ أن يتعلم القراءة والكتابة، ومع هذا ظل أمياً طوال حياته، أما عن سبب إصراره على أن يظل أمياً فيرجع إلى محاولته إثبات صدق الأصل القرآني. وانظر العقد الفريد (4: 245)، علوم الحديث لابن الصلاح (15 ـ 16) وغيرها.

بارعين في فن الكتابة عن كُتاب ما قبل الإسلام وتعلم آخرون الكتابة بعد ذلك ونجد قائمة طويلة من الكتبة الدائمين والمؤقتين في التراتيب الإدارية للكتاني[1] حيث ذكر أسماء لإثنين وأربعين كاتباً.

ويزودنا دكتور حميد الله في كتابه الوثائق السياسية بأسماء أكثر من خمسين كاتباً[2] هذه القائمة الطويلة من كُتّاب محمد ﷺ يعطينا انطباعاً بأن الأدب عموماً والكتابة بصفة خاصة لم تكن مجهولة للعرب كلية، وفي الواقع أن بعض الكتاب تعلموا فن الكتابة بعد ظهور الإسلام فقط وأصبحوا بارعين كما لو كانوا كتبة مخضرمين. ويعكس هذا المناخ العام لأدب الجزيرة العربية لأنه بدونه كان إنجاز هؤلاء الكتاب سيكون تقريباً مستحيلاً.

ج ـ الكاتبات من النساء:

ولو ألقينا نظرة على قائمة هؤلاء الذين عرفوا القراءة والكتابة من النساء، سنصادف أسماء العديد من النساء المتعلمات في هذه الفترة، ومن بين مشاهير الكاتبات سنجد حَفْصَةَ، أم كلثوم، بنت عبدالله (كانت معلمة لحفصة)، عائشة بنت سعد، أم سلمى، فاطمة بنت الخطاب، خديجة، كريمة بنت المقداد[3].

والأغلبية من هؤلاء النساء تعلمن فن الكتابة قبل الإسلام، وهذا يبين أن الكتابة في هذه الفترة كانت شائعة جداً بين النساء، وإلى حد أن معظم الطبقات الفقيرة والمعدمة من المجتمع الجاهلي استطاعت أن تتعلم القراءة والكتابة.

ويستشهد «البلاذري» بقصة طريفة تبين أن الكتابة كانت شائعة بين النساء في هذا العصر، وذكر أن امرأةً متزوجة تسمى سُمَيْلة كتبت رسالة حب على الرمال، وعندما رآها زوجها طلقها، ثم تزوجت هذه المرأة مرة ثانية من محبوبها[4].

وإذا كانت هذه القصة صادقة فإنها تعكس بوضوح انتشار عادة الكتابة بين العرب قبل الإسلام.

---

(1) التراتيب الإدارية (1: 115)، وعلوم الحديث لابن الصلاح (17).

(2) الوثائق السياسية في أكثر من موضع.

(3) فتوح البلدان (458).

(4) دراسة في أدب البرديات (2: 6)، أنساب الأشراف (1: 137).

د ـ تدريس فن الكتابة:

من الواضح أن الكتابة درسها بجدية قلة قليلة من المهتمين بهذا الفن قبل الإسلام، ونجد بعض المراجع لمدرسي وتلاميذ هذا الفن، ولنأخذ مثالاً لذلك، عَمْرو بن زرارة[1] المعروف بالكاتب، وجفينة[2] ذكر أنهما كانا كاتبين ومعلمين لهذا الفن من الكتابة.

وذكر أيضاً أن عدي بن زيد العبادي أرسل إلى الكُتّاب ليتعلم هذا الفن[3].

ومن المصادفة أيضاً أن يشير التقرير التالي أيضاً إلى وجود المدارس العامة في الجزيرة العربية قبل الإسلام، ووجود هذه المدارس في هذه الفترة دليل أيضاً يؤكد حقيقة أننا وجدنا العديد من المراجع لمعلمين في المصادر الأولى[4].

هـ ـ الكامل:

إن مصطلح كامل الذي وُجِدَ في الأدب الجاهلي، وفي الأدب الإسلامي في مراحله المبكرة يبين بما لا يدع مجالاً للشك أن الكتابة كان ينظر إليها نظرة تبجيل واحترام، ففي هذا العصر كان الرجل الذي يظهر براعة في التجارة أو السباحة أو الكتابة يحظى بلقب شرفي وهو «الكامل»[5].

ومن بين هؤلاء الرجال كان سعد بن عبادة[6]، أَسَيْد بن حُضير[7]، عبدالله بن أبيّ[8]، أوس بن خولي[9]، سويد بن الصامت[10]، حضير الكتائب[11]، ورافع بن مالك[12].

---

(1) مصادر الشعر الجاهلي (50).

(2) طبقات ابن سعد (3: 1: 258).

(3) الأغاني (2: 101).

(4) المحبر (475).

(5) طبقات ابن سعد (3: 2: 91، 136، 142، 148)، فتوح البلدان (459)، الأغاني (3: 25)، حيث ذكر أن الكامل يشمل أيضاً صفات الشعر والشجاعة.

(6) طبقات ابن سعد (3: 2: 142)، فتوح البلدان (459).

(7) طبقات ابن سعد (3: 2: 136)، فتوح البلدان (459).

(8) فتوح البلدان (459).

(9) طبقات ابن سعد (3: 2: 91)، وفتوح البلدان (459).

(10) فتوح البلدان (459)، الأغاني (3: 25)، السيرة (284).

(11) طبقات ابن سعد (3: 2: 136)، فتوح البلدان (460).

(12) طبقات ابن سعد (3: 2: 148)، فتوح البلدان (460).

وعلى الرغم من أن التاريخ لم يحتفظ لنا بسجلات مكتوبة عن هؤلاء الرجال. فالاحتمال الأكبر لتميزهم وتركهم بعض السجلات المكتوبة وارد بدرجة كبيرة، فاللقب الذي سبق أسماءهم يؤكد هذا الاحتمال.

و ـ المعاهدات والاتفاقات بين القبائل:

من بين النصوص المكتوبة يجدر بنا أن نذكر معاهدات القبائل واتفاقياتها والتي احتفظ ببعضها منذ عهد بعيد؛ فوثيقة مقاطعة محمد ﷺ وعائلته[1] المعروفة باسم صحيفة وكتاب من الجائز أن تكون آخر سلسلة المعاهدات المكتوبة.

وكذا نص الاتفاق القبائلي بين قحطان وربيعة ذكره الدينوري[2] فضلاً عن هذا نجد مراجع للمعاهدة بين خزاعة وعبد المطلب[3]، ويقال: إن هذه الوثائق وجدت معلقة في الكعبة، ثم وجدت بعد ذلك في عائلة خزاعة ويقال: إنهم أحضروها للنبي ﷺ بمناسبة توقيع صلح الحديبية وقرأها أبيّ بن كعب للنبي ﷺ[4].

إن وجود مثل هذه الاتفاقيات القبائلية مكتوبة يوضح وضوحاً تاماً أن الكتابة كانت للعرب البدو في حقبة ما قبل الإسلام.

ز ـ النقوش: الكتابة بالنقش:

ومصدر آخر هام للمعلومات المتعلقة بالكتابة العربية في فترة ما قبل الإسلام هي النقوش الأولية والتي لم يكتشف بعضها إلا منذ وقت قريب، ويشير أسد في كتابه مصادر الشعر الجاهلي إلى ثمانية من هذه النقوش[5]، في حين يعتبر (Rosenthal) أن النقش على مقبرة امرئ القيس والمؤرخ سنة 328م هو أقدم النقوش العربية المحتفظ بها[6].

---

(1) طبقات ابن سعد (1: 1: 139 ـ 140)، تاريخ الطبري (1: 1189)، السيرة (230).

(2) الأخبار الطوال (353 ـ 354).

(3) مصادر الشعر الجاهلي (66).

(4) مصادر الشعر الجاهلي (66)، الوثائق السياسية، رقم (171).

(5) مصادر الشعر الجاهلي (25 ـ 31).

(6) Rosenthal, Franz: History of Muslim Historiography (17).

ويشير أسد إلى نقشٍ أقَدَمَ من هذا بكثير، حيث إنه يرجع إلى القرن الثالث الميلادي، ويشير أيضاً إلى نقش مؤرخ سنة 210م، وُجِدَ في وادي المكتب في طور سيناء[1]. ويعتبر أسد هذا النقش من أقدم النقوش.

ويشير الأزرقي إلى العديد من النقوش على أحجار الكعبة، وبعض هذه النقوش لم تكتشف إلا حين إعادة بنائها[2]، وذكر أيضاً عدداً من النقوش التي نقشت على الألواح والأحجار ووجدت على الهضبات، وفي أماكن أخرى[3].

ويطيب لنا هنا أن نؤكد أنَّ الأزرقي يعد واحداً من أصدق المؤرخين فيما يتعلق بالنقوش التي وجدت في مكة، وعن صدق أبحاثه ودقتها يعلق Rosenthal قائلاً: «من المؤكد أنه يمكن أن نشير إلى حالات تتسم بالتناول الدقيق والتاريخي للنقوش من المؤرخين المسلمين... وخير مثال على هذا المؤرخ لتاريخ مكة، وهو الأزرقي، فقد نقل نقوش مباني مكة بطريقة صادقة وصحيحة»[4].

إن التقارير السابقة والمتعلقة بنقوش مكة تبين بوضوح انتشار الكتابة العربية في الجزيرة العربية قبل الإسلام.

ح ـ الشعر وتاريخ مآثر الحرب، وعلم أنساب القبيلة:

ونأتي أخيراً إلى أغنى ميراث للعرب البدو ألا وهو الشعر الذي كان تلقائياً أساساً ثم سُجِّلَ بطريقة منظمة في أواخر فترة الأمويين وفي بداية عصر العباسيين.

لقد راود معظم العلماء الشكوك حَوْلَ مدى صدق الشعر الشفهي التلقائي المنقول من العصر الجاهلي حتى العصر الأموي والعباسي وشكوكهم هذه لها ما يبررها إلى حدٍّ ما، لأنَّ القليل جداً من هذا الشعر الجاهلي وخاصة الجزء المكتوب فيه والذي كان غير ذي أهمية في الدلالة هو الذي عاش حتى يومنا هذا ولكن تم نشر الشعر البدوي باعتباره إنتاج فترة ما بعد ظهور الإسلام لأنه ببساطة من غير المنطقي أن يتم نقل هذا الشعر

---

(1) مصادر الشعر الجاهلي (25 ـ 26).

(2) أخبار مكة (1: 37، 111)، (2: 227) وأيضاً انظر النهاية (1: 312).

(3) أخبار مكة (1: 149 ـ 160، 270) و(2: 233).

(4) Rosenthal, Franz: History of Muslim Historogriaphy (112).

شفهياً، ومع هذا الإنتاج الضخم كان من غير المتصور أن ينسب هذا الشعر إلى فترة ما قبل الإسلام.

وعلاوة على الذاكرة الحافظة القوية التي يتمتع بها العرب حقيقة واقعة لا يمكن تجاهلها مطلقاً، ففي الواقع أن الذاكرة واحدة من المصادر الحقيقية لحفظ المعلومات.

أما بخصوص تدوين الشعر في هذه الفترة فيقال أنَّ قبائل معينة اعتادت أن تسجل قصائد شعراء قبائلها[1]، ومن المعروف أيضاً أن بعض الشعر الجاهلي نقش بحروف من ذهب، وعلق على أبواب الكعبة كتحفة رائعة تمثل إنتاج السنة التي أبْدع فيها[2].

ولهذا فقد عرفنا أن عدداً قليلاً جداً إن لم يكن كل الأعمال الشعرية في الجاهلية تم تدوينها، وقد جمع ناصر الأسد في كتابه: «مصادر الشعر الجاهلي» حوالي عشرين مرجعاً من كافة أنواع القصائد لتسجيل الشعر الجاهلي[3] ويعتقد Krenkow «كرنكو» أيضاً أن بعض هذه النصوص حفظها الشعراء الجاهليون[4].

بالإضافة إلى الشعر، فإنَّ علْمَ الأنْساب القَبلِية، والتأريخ لحروب القبائل (أيام العرب) شكلت أيضاً جزءاً من المواد المكتوبة للعرب البدو[5].

ط ـ الخطابات الشخصية:

ومن بين النصوص المكتوبة لفترة الجاهلية كانت أيضاً الخطابات الشخصية التي كانت يتم تبادلها بين البدو المتعلمين[6].

ولنأخذ مثلاً لذلك: فقد كتب حنظلة بن أبي سفيان إلى والده في اليمن بأن محمداً ابن عبدالله ﷺ دعا الناس إلى عبادة الله[7].

---

(1) مصادر الشعر الجاهلي (107 ـ 133).

(2) المفضليات (10)، والعقد الفريد (119).

(3) مصادر الشعر الجاهلي (122 ـ 133).

(4) Krenkow, "The use of writing for the preservation of ancient Arabic poetry", A Volume of Oriental Studies to E.G.Brown, Edited by J.W.Arnold, pp. 261-268.

(5) طبقات ابن سعد (4: 1: 32 ـ 33).

(6) صبح الأعشى (6: 468).

(7) الأغاني (6: 250).

وكتب أيضاً قصي بن كلاب إلى أخيه رزاح يطلب منه المساعدة[1].

ووجدنا أيضاً مرجعاً للخطابات المتبادلة بين السموأل وحارث بن أبي شمر الغساني[2].

ي ـ التسجيل بين حين وآخر:

ولنا أن نذكر أيضاً التسجيل الذي كان يتم من حين لآخر للأمثال[3]، وللأحداث التاريخية[4]، الدَّيْن[5]، خطابات العفو العام[6] وذلك في فترة ما قبل الإسلام.

وهذه التسجيلات كان من المتوقع أن تكون أكثر في المدن التجارية مثل مكة عن أي مدينة أخرى حيث كانت الصفقات تتم ربما بطريقة شفهية أي دون عقد مكتوب.

وتزودنا المناقشة السابقة فكرة ما عن المناخ الثقافي أو الأدبي في فترة ما قبل الإسلام[7].

ففي ضوء المعلومات يبدو لنا بما لا يدع مجالاً للشك أنه كان يوجد حوالي سبعين متعلماً في مكة عند ظهور الإسلام، وفي الواقع أن هذا ضئيل لا يتناسب مع الإنجاز الأدبي للناس قبيل ظهور الإسلام، ولم يكن المناخ الأدبي ضئيلاً إلى هذا الحد الذي صوره أوائل المؤرخين والاكتشافات المستمرة لأوراق البردي، والنقوش.

والأبحاث الحديثة في هذه الفترة الموغلة في القدم يدحض الادعاء بالجهل المطبق لمجتمع الجزيرة العربية قبل الإسلام[8].

---

(1) السيرة (75).

(2) الأغاني (9: 99).

(3) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة (137).

(4) صبح الأعشى (6: 468)، المصادر التاريخية (144).

(5) الوثائق السياسية، رقم (181)، مصادر الشعر الجاهلي (70).

(6) الأغاني (11: 120).

(7) فتوح البلدان (457)، العقد الفريد (4: 242 ـ 243).

(8) وقد تم في هذا الوقت اكتشاف بعض البرديات من عصر عمر بن الخطاب، وبعض النقوش من عصر معاوية.

(cf. George C. Miles, "Early Islamic inscriptions near Ta'if in the Hijaz", Journal of the Near Eastern Studies, October, 1948, p. 240; Adolf Grohmann, from the world of Arabic Papy ri, Cairo, 1952, P. 82; and Tadrib, 152).

والآن لا يحق لنا أن ننكر إنجازاتهم الدينية والثقافية والأدبية وخاصة في وجود دليل واضح وهو الخاص بتأثير الديانة اليهودية، والديانة المسيحية على هذا المجتمع، ويخبرنا الحديث بأن اليهود اعتادوا أن يقرؤوا أجزاء من التوراة ويترجموها إلى اللغة العربية للبد والمتحدثين بالعربية[1]، وذكر أن أمية بن أبي الصلت[2]، والنضر بن الحارث[3] كان لديهما معلومات عن الإنجيل[4].

أما من ناحية الحياة الاجتماعية للعرب قبل الإسلام فقد ذكر أن العرب كان لديهم قوانين معينة اعتادوا أن يسيروا وفقاً لها، ومع أن كل قبيلة كان لها قوانينها الخاصة[5]. إلا أنهم تمسّكوا بروح القانون عموماً، ويشير المرجع السابق المكتوب على الروسم إلى وجود قوانين قبلية معينة.

والقول بأنَّ العرب لم يكن لديهم ميراث من النثر الأدبي قبل الإسلام[6] واضح من ادعاء هشام بن محمد بن السائب الكلبي بحصوله على مادة كتابه (كتاب الأنساب) من كتاب وُجِدَ في الحيرة[7]. وقول هشام هذا أدى إلى إيهام «رشيد رضا» الصحيح بأن مصطلح الأمية لا يمكن أن يكون شاملاً لكل العرب كما ذكر البعض[8].

وفي الواقع فإنَّ الكثير من مصادر مواد الكتابة، وأوعية من السجلات المكتوبة المذكورة في القرآن، وكثيراً من أدب ما قبل الإسلام فقد يؤكد أن الكتابة كانت شائعة في

---

(1) صحيح البخاري (3: 98) في كتاب التفسير، و(4: 441) في الاعتصام بالسنة.

(2) كتاب الحيوان (1: 320).

(3) استخدم النضر بن الحارث الكتابة قبل الإسلام. السيرة لابن هشام (235).

(4) السيرة (191 ـ 192، 235 ـ 236، 458).

(5) مر معنا كلمات الشاعر لبيد: «ولكل قوم سُنَّة وإمامها»، ويعني بذلك أن لكل قبيلة زعيمها الخاص، وقوانينها. الشعراء السبع (123).

(6) جولد تسيهر: دراسات إسلامية (2: 204 ـ 205/ 190 ـ 191)، ونشأة الكتابة في المجلة الآسيوية للبنغال (JASB) ـ 1856، ص (375 ـ 378).

(7) المنار (10: 746).

(8) علوم الحديث لابن الصلاح (15 ـ 16) و Grunebaum, Medieval Islam. (98).

عهد ما قبل الإسلام، فضلاً عن أوعية مثل الكتاب، الصحيفة، المجلة[1]... الخ وأدوات الكتابة مثل العلم، البَرْدي، الحبر، المحابر، السجلات، الألواح، الأختام، وعشرات من الأشياء الأخرى المتعلقة بالسجلات المكتوبة.

وهذه القائمة الطويلة من مواد الكتابة[2] يعطينا دليلاً كافياً على أنَّ فرضنا بأنَّ الكتابة كانت موجودة وسائدة في المجتمع البدوي قبل الإسلام صحيحاً.

ومصطلح الحديث المعروف «متن» يوضح أن استخدام الكتابة كان موجوداً قبل الإسلام، فكلمة متن التي استخدمت بعد ظهور الإسلام (في مقابل الإسناد) في الأحاديث تعد كلمة من كلمات ما قبل الإسلام[3] (العصر الجاهلي)، وفي الجاهلية وجدت هذه الكلمة في «نص مكتوب»[4].

واستخدمها «لبيد» بهذا المعنى عندما ندب حظه في وفاة محبوبته فقال: «إن دموعَهُ المنهمرة مثل السيل تزيل الغبار من على جسدها الذي يبرق كما لو كان كتاباً «كالزبور» يتجدد متنه وأقلامه[5].

فاستخدم كلمة متون ومفردها متن مقترنة (بالزبور) (الكتب)، وفي هذه السطور يطرح بما لا يدع مجالاً لأدنى شك وجود الكتابة في مجتمع الجزيرة العربية قبل الإسلام.

وإشارة إلى وجود المادة المكتوبة قبل الحقبة الإسلامية يذكر جين بول «أن فؤاد سزكين» أحضر نسخة من موسوعة لجولد تسيهر في تعيين التواريخ الدقيقة للأحداث وفقاً لترتيبها الزمني، وأعلن رأيه صراحة في أن الكتابة كانت أكثر شيوعاً واستخداماً في حقبة ما قبل الإسلام بأكثر مما فهمه «جولد تسيهر»[6].

---

(1) انظر الفصل الخامس من هذا الكتاب، لأجل معرفة المصطلحات التي استخدمت في الكتابة، وأدواتها.

(2) مصادر الشعر الجاهلي (59 ـ 103).

(3) دراسات إسلامية لجولد تسيهر (1: 6 ـ 7/ 20).

(4) وهذا يوضح أن معنى مصطلح «متن» بعد ظهور الإسلام (نص الحديث) قد اقتبس من فترة ما قبل الإسلام.

(5) الشعراء السبع (94).

(6) فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي (1: 53 ـ 83) باللغة الألمانية.

5 ـ مكانة الكتابة بعد الإسلام:

لقد رأينا أن الكتابة كانت معروفة في شبه جزيرة العرب عندما ظهر محمد ﷺ، فهل من غير الطبيعي أن يرغب المهتدون إلى الدين الجديد في أن يسجلوا أقوال زعيمهم الديني كتابةً، خاصة أنه شجعهم على ذلك؟

من المؤكد أن الإجابة على هذا السؤال هي بالإيجاب، فقد أعطى الصحابة اهتماماً لتعاليم النبي ﷺ يفوق الوصف، ولم يحاولوا أن يتعلموا ذلك فحسب بل نشروه بين إخوانهم في الدين، ونشر هذه التعاليم كان جزءاً من رسالة النبي ﷺ والتي أنجزها الصحابة على أكمل وجه، وفضلاً عن هذه المهمة اتخذ الصحابة الترتيبات اللازمة لحفظ هذه التعليمات شفاهةً وكتابةً، ولأن العرب كانوا يمتلكون ذاكرة قوية فقد كانوا أفذاذاً في تلك الدرجة، إنهم كانوا يتعلمون الآلاف من الآيات القرآنية بعد سماعها مرة واحدة، أما بالنسبة لعادة الكتابة فقد كان لديهم نزعة بطبيعتهم في تسجيل الأقوال المأثورة للقمان، وآخرون منهم اعتادوا كتابة شعر شعراء قبائلهم، وأنسابها، وتاريخ حروبها، وعليه فقد كانت الطريقتان مهيئتين لهم لحفظ تعاليم النبي ﷺ.

وعلى الرغم من هذه الحقيقة الدامغة، إلا أنه يعتقد بوجه عام أن السنن كانت تحفظ في الذاكرة فقط، ولم تنقل إلى الكتب إلا بعد حوالي قرن[1]، وهذا الافتراض غير منطقي انطلاقاً من أنه إذا كانت الأمثال وحكم لقمان تم تسجيلها كتابة، فمن باب أولى أن تسجل أقوال محمد ﷺ بالمداد الأبيض والأسود، ومن الجدير بالذكر هنا أن نشير إلى عبارة «Robson» وهو عالم معاصر في الحديث إذ أنه يتفق مع «Sprenger» حيث قال: إن «Sprenger» علق بمنطقية على ذلك، وذكر أنه كان قد اقتنع بأنه لم يتم إخراج كتاب واقعي وحقيقي قبل عام 120هـ، ولكنه مع ذلك لم يقتنع بأن علماء

---

(1) أضواء على السنة المحمدية لأبي رية (207)، قوت القلوب للمكي (1: 159)، الحديث والمحدثون لأبي زهو (127)، فجر الإسلام (221)، قواعد التحديث (45 ـ 46)، فتح الباري (1: 17) في المقدمة، تذكرة الحفاظ (1: 151)، وفتح الباري أيضاً (1: 218)، خطط المقريزي (2: 333)، كشف الظنون (1: 637)، مجلة المنار (10: 768)، تاريخ الأدب العربي لنيكلسون (144)، مقدمة تقييد العلم (7)، السنة قبل التدوين (40).

الحديث والسنة قبل هذا كان لديهم الثقة التامة في ذاكرتهم، وبالتالي لم يكتبوا أي أحاديث أو أقوال[1].

وتعليق «Guillaume's» على هذا الموضوع أيضاً يستحق الذكر إذ أنه يقول: «كان من المهم للغاية أن يتعلق الصحابة بكل لفظ ينطقه النبي ﷺ وبالتالي تعوَّد هؤلاء الصحابة الذين كان بإمكانهم أن يقرؤوا ويكتبوا أن يسجلوا كلماته ليعيدوها على مسامع أصحاب الصوت العالي من الكفار ليعرفوا ماذا قال، ولم يكن هناك أي دليل يثبت أن تسجيل هذه الأقوال في ذلك الوقت المبكر كان موضعاً للاعتراض من النبي ﷺ[2].

إن الاكتشافات الحديثة لوثائق عصر النبي ﷺ متناقضة مع نظرية تأخر تسجيل الحديث، ويمكن أن نؤكد الآن أن الحديث كان يكتب في حياة النبي ﷺ وفي الواقع أن مسألة النقل المكتوب للحديث ارتبطت بشدة بالتطور التاريخي لممارسة الكتابة ذاتها.

ولقد رأينا أن ممارسة الكتابة بدأ قبل ظهور الإسلام بوقت كبير، ووجدت اهتماماً كبيراً في ظل الإسلام. وتقدم هذا الفن تقدماً كبيراً أثناء حياة النبي ﷺ وبعد وفاته، ولقد تأثر النبي ﷺ في أول نزول الوحي بكون أول القضايا كانت متعلقة بالقراءة والكتابة[3]، ولهذا خطط لسياسة تربوية صحيحة ونفذها بحماس عظيم، وفي سعيه لتنفيذ هذه السياسة افتتح المدارس وعين المدرسين ووظف الكتبة ليدونوا الوحي[4] وأرسل المدرسين إلى الأقاليم المختلفة من الإمبراطورية الإسلامية[5].

وفي البداية لم يكن هناك مبان منفصلة مخصصة للمدارس، فالبيوت الخاصة بالصحابة، والمساجد كانت تؤدي هذا الغرض، وكانت بيت الأرقم[6]، ومخرمة بن نوفل[7]

---

(1) Robson: "Tradition, the second Foundation of Islam Muslim word, XLI: i (January, 1951) P: 25.

(2) المصدر السابق، (17).

(3) القرآن الكريم (العلق: 1: 5).

(4) تراوح عدد الكتبة من 40 ـ 50 كاتباً، التراتيب الإدارية (1: 115).

(5) لقد عُرِفَ «مصعب بن عمير» بأنه «مقرئ» وأرسل ليعلم أهل المدينة حتى قبل فترة الهجرة، السيرة (1: 289 ـ 290)، وطبقات ابن سعد (3: 1: 83).

(6) تاريخ الطبري (1: 233)، أخبار مكة (2: 210).

(7) طبقات ابن سعد (4: 1: 150).

تعد نماذج لهذه المدارس يدرس فيها العلم، وكان بيت الأرقم مركزاً للتربية الدينية في مكة، أما بيت مخرمة المعروف بدار القراء فكان نوعاً من المدارس المقامة في المدينة[1].

وفضلاً عن دار القراء كان هناك تسعة[2] مساجد في المدينة والتي كانت تستخدم ليلاً كمدارس، أما بخصوص المدارس العامة فلم يأت لها ذكر في المراجع عدا واحدة افتتحت في السنة الثانية للهجرة[3]، في حين أننا نجد مراجع عن المدرسين الذين عينهم النبي ﷺ، ومن أشهرهم عبادة بن الصامت[4]، عبدالله بن سعيد بن العاص[5]، سعد بن الربيع الخزرجي[6]، بشير بن سعد بن ثعلبة[7]، أبان بن سعيد بن العاص[8]، مصعب بن عمير[9]، وابن أم كلثوم[10].

ومن بين المدرسين الذين أرسلوا إلى المدن المختلفة الرفاق السبعون الذين قتلوا في بئر معونة[11] وهم في طريقهم إلى الناس في نجد[12]، وأرسل آخرون إلى نجران[13]، وإلى اليمن[14]، وكان أشهر هؤلاء المعلمين: معاذ بن جبل الذي عين موجهاً للمدارس، وأرسل إلى اليمن حيث تنقل متجولاً من بلدة إلى أخرى[15].

---

(1) طبقات ابن سعد (4: 1: 150).

(2) أنساب الأشراف (1: 273).

(3) طبقات ابن سعد (4: 1: 150).

(4) التراتيب الإدارية (1: 48).

(5) أسد الغابة (3: 175)، حيث عرف قبل الإسلام بالكاتب.

(6) طبقات ابن سعد (3: 2: 77).

(7) طبقات ابن سعد (3: 2: 83).

(8) فتوح البلدان (457).

(9) السيرة (289 ـ 290)، وابن سعد (1: 1: 158)، (3: 1: 83).

(10) طبقات ابن سعد (1: 1: 158).

(11) السيرة (648).

(12) طبقات ابن سعد (3: 1: 36 ـ 38).

(13) طبقات ابن سعد (3: 1: 299).

(14) كتاب الكنى للدولابي (1: 19).

(15) تاريخ الطبري (1: 1852 ـ 1853، 1981)، والسيرة (886 ـ 887، 956 ـ 957)، وحلية الأولياء (1: 240 ـ 241).

ومع أن النبي ﷺ نفسه ظل أمياً[1] إلا أنه شجع الآخرين لا لكي يتعلموا اللغة العربية فحسب بل ليتعلموا أيضاً اللغات الأخرى، فعلى سبيل المثال طلب من زيد بن ثابت أن يتعلم العبرية والسريانية[2]، ويُنسب إلى النبي ﷺ عدد من الأحاديث التي تبين تشجيعه لهذا الاتجاه نحو القراءة والكتابة[3]، وفي حديث له ذكر أنه كان يوجه الأطفال لاكتساب المعرفة من جيرانهم[4]، وفي رواية أخرى طلب منهم أن يتعلموا دروسهم في المساجد القائمة في الشوارع التي يقطنون فيها[5]، وفي حديث آخر يقول: «إن التعليم المجاني هو واجب كل شخص متعلم، ومن يحتفظ لنفسه بعلم فقد ارتكب خطيئة يستحق عليها العقاب»[6].

وعن الكتابة يقول النبي ﷺ: إن تعلم الكتابة هو واجب الأب تجاه ولده[7]، وأعطى نصائح عديدة بخصوص الكتابة مثل تجفيف مداد النصوص المكتوبة بعد كتابتها[8]، ومراجعتها بعد استكمالها[9] ووضع النقط على الحروف[10].

---

(1) واعتقد بعض علماء المسلمين مثل أبي الوليد (المتوفى سنة 474هـ) والذهبي (المتوفى سنة 748هـ) أن النبي ﷺ كان بإمكانه أن يقرأ كلمة أو كلمتين، ولكنهم كانوا محل نقد بالغ من إخوانهم المسلمين، تذكرة الحفاظ (2: 277).

(2) طبقات ابن سعد (2: 2: 115)، وتاريخ الطبري (1: 1460).

(3) جامع بيان العلم، الفصل الخاص بالعلم (1: 7 ـ 55).

(4) صحيفة همام بن منبه (2)، والتراتيب الإدارية (1: 41 ـ 42).

(5) صحيفة همام بن منبه (2).

(6) جامع بيان العلم (1: 3 ـ 5)، ونص الحديث «من كتم علماً ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة» (المترجم).

(7) التراتيب الإدارية (2: 239 ـ 240).

(8) أدب الإملاء والاستملاء للسمعاني (174)، مجمع الأمثال للميداني (2: 47).

(9) أدب الكتاب للصولي (165).

(10) كان يعتقد بصفة عامة أن تمييز الحروف بوضع النقط على الحروف الهجائية لم تأخذ الشكل المتعارف عليه حالياً إلا في منتصف القرن الأول من الهجرة، ولكن السيوطي يعتقد أن وضع النقط على الحروف تم في حياة النبي ﷺ وطبقاً لرواية، حميد الله الذي يقول «إن أقدم وثيقة من البردي مؤرخة سنة 22هـ وموضح بها النقط المميزة للحروف مثل «خ، ذ، ز، ش، ن» وثبت صحة وجهة النظر السابقة باكتشاف مخطوطات من القرن الثالث الهجري بخصوص ذلك، وفي ضوء المعلومات السابقة من المؤكد أن الحروف كانت توضع عليها النقط أثناء حياة النبي ﷺ وبالتالي صحة تعليماته بخصوص ذلك.
تدريب الراوي (152)، أدب الكتاب (57)، مصادر الشعر الجاهلي (25 ـ 31).

وفي بعض من تعليماته يطلب من زيد بن ثابت أن يضع قلمه على أذنه أثناء النسخ في الإملاء ويذكر أنه قال لمعاوية: «لا يا معاوية، ضع القطن في المحبرة (لتشرب الحبر)، وسن قلمك بميل».

وعلاوة على هذه التعليمات المباشرة التي أصدرها بخصوص الكتابة[1] فقد اتخذ بعض الخطوات العملية ليعرف مجتمعه بفن الكتابة ويبسطها. وطلب من الشفاء بنت عبدالله أن تعلم زوجته حفصة[2] فن الكتابة باعتبارها واحدة من النساء الكاتبات قبل الإسلام، وقصة أسرى غزوة بدر الذين ارتبط فك أسرهم بتعليم فن الكتابة لعشرة أطفال بالنسبة لكل أسير معروفة للجميع[3]، وقبول النبي ﷺ لهذه الخدمة في مقابل فك الأسر يظهر اهتمامه الكبير الذي اعتاد أن يعطيه للكتابة، علاوة على أنه ألح على زيد بن ثابت أن يتعلم كتابة العبرية والسريانية[4].

إن ما عرضناه في الواقع هو خلاصة السياسة التعليمية للنبي ﷺ والتي أدت إلى شيوع القراءة والكتابة بوضوح في الجزيرة العربية[5] ومع أن الاهتمام كان مركزاً على التربية الدينية فإن فن الكتابة حَظِيَ أيضاً باهتمام عظيم.

ومنذ أن وصل النبي ﷺ إلى المدينة فصاعداً وجدنا أن الكتابة وظفت لكل الأغراض الدينية والتجارية، والإدارية، والسياسية؛ ففي المجال الديني استخدمت الكتابة في التسجيل وبخاصة تدوين الوحي.

---

(1) عيون الأخبار (1: 42)، الوزراء والكتاب (12).

(2) فتوح البلدان (458).

(3) طبقات ابن سعد (2: 1: 14)، الأموال (115 ـ 116)، قصة فارس (1: 261).

(4) طبقات ابن سعد (2: 2: 115)، تاريخ الطبري (1: 1460).

(5) ويجب ألا نستنتج من هذا أن معرفة القراءة والكتابة قد تطورت إلى حد الكمال في تلك المرحلة، لأننا نجد مراجع تبين أنه حتى رؤساء قبائل بعينها لم يعرفوا القراءة والكتابة كما في حالة نمير بن تولب رئيس قبيلة عقل في اليمن الذي لم يستطع أن يقرأ العقد الذي بعث به النبي ﷺ إليه، وأعطاه لشخص من سوق المدينة ليقرأه له.
الأموال (11 ـ 12)، طبقات ابن سعد (1: 2: 30)، صبح الأعشى (13: 329 ـ 330)، الوثائق السياسية رقم (233).

وكان النبي ﷺ يعين الكتبة لهذا الغرض[1]، وبعضهم كان كَتَبَة دائمين، والبعض الآخر كان موسمياً، وتم تعيين كَتَبَةً لكثير من الأغراض الإدارية الأخرى مطابقة لتنظيمات رؤساء القبائل[2]. والاحتفاظ بسجلات للمنتجات الزراعية، والزكاة، والضرائب الأخرى[3]، والكاتب الذي لديه خبرة باللغات الأجنبية كان مسؤولاً عن تبادل الرسائل مع غير العرب[4] وخصص كاتب لكتابة التفاصيل الخاصة بنصيب النبي ﷺ في الغنائم[5]، وعين آخر للرد على الكتب والرسائل وذلك لمدة ثلاثة أيام في حالة غياب الكاتب الدائم المختص بهذا الغرض[6]، وكان هذا الكاتب الدائم مختصاً أيضاً بحمل ختم النبي ﷺ[7].

وبسبب النشاط الكبير الذي شَهِدَتْهُ هذه الفترة في معرفة القراءة والكتابة كان من الطبيعي أن يحتفظ بسنن وأحاديث في شكل مكتوب، وعليه فقد سجل الصحابة عدداً ضخماً من الأحاديث في صحفهم، وعلى الرغم من اتباعهم الطريقة القديمة في حفظ المعلومات بالذاكرة فقد حفظوا سنة النبي ﷺ مشافهة، ولهذا فتسجيل سنن النبي ﷺ وأحاديثه تم حفظاً وكتابةً.

إنَّ دورَ الذاكرة والكتابة فيما يتعلق بشكل وتسجيل الحديث كان موضعَ نقاشٍ طويل، وقد بذلت محاولات للتأكيد الشديد على دور كل منهما مقابل الأخرى، ولهذا كان من الغريب أن نفضل الذاكرة كوسيلة لحفظ الحديث، وأكثر من هذا اعتُقد أن الكتابة يتم اللجوء إليها كوسيلة مساعدة للذاكرة فحسب، ولم يصبح للكتابة اليد العليا إلا مع نهاية القرن الأول الهجري.

---

(1) طبقات ابن سعد (1: 2: 15، 162).

(2) تاريخ الطبري (2: 836).

(3) تاريخ الطبري (2: 836)، الوزراء والكتاب (12 ـ 13)، التراتيب الإدارية (1: 121 ـ 124)، العقد الفريد (4: 246).

(4) صبح الأعشى (1: 165)، العقد الفريد (4: 246).

(5) العقد الفريد (4: 246)، الوزراء (12).

(6) العقد الفريد (4: 246 ـ 247)، الوزراء (12 ـ 13).

(7) العقد الفريد (4: 247)، الوزراء (13)، المعارف (107).

ومع أن المحصلة العامة هي أن الكتابة كان عليها أن تناضل لتأخذ مكانة مرموقة ويعترف بها فلا يمكن التسليم بأن الذاكرة كانت في أي مرحلة من المراحل الوعاء الحافظ الوحيد للحديث، وفي الواقع فإنَّ تسجيل السنن والأحاديث كان يتم بالوسيلتين سواء عن طريق الذاكرة أو عن طريق الكتابة.

6 ـ الكتابة والذاكرة:

إن الوسيلتين الأساسيتين في حفظ المعلومات كانتا الذاكرة والكتابة، ومسألة تفضيل إحداهما على الأخرى كانت دائماً موضع جدال، ودارت مناقشات عقيمة لإثبات التفاضل بينهما.

ومن الأمور الثابتة بحق من العصور القديمة حتى وقتنا الحالي أن الذاكرة كانت تعد شكلاً مفضلاً لحفظ المعرفة والكتابة، من جهة أخرى فقد استخدمت كوسيلة مساعدة أو موجهة للذاكرة لا بديلاً لها، ولهذا يقول: «Albright» إنَّ الكتابة استخدمت في تسجيل الآثار القديمة التقليدية حيث كان من المتوقع أن يحفظ التلميذ أسماء هومر وفيرجل[1].

وقال سقراط (399 ـ 469 ق.م) أو أحد مدرسيه منذ زمن طويل: «إنه لا يحب أن يرى أفكاره مسجلة على جلود الحيوانات الميتة بدلاً من حفظها في قلب الإنسان وعقله»[2].

وفي الهند كانت التعليمات الدينية بصفة خاصة والتربية بصفة عامة تنقل شفاهاً من العصور القديمة فصاعداً، ويقول «Winternitz»: هل بدون الكتيب أو الكتاب يستطيع المرء أن يتعلم؟ على العكس فيمكن للمرء أن يتعلم اليوم من منطق لسان مُدَرِّسِه كما كان يحدث منذ آلاف السنين[3].

ومع أن الكتابة استخدمت في عهد البوذيين حيث إن الملك أمشوكا (237 ـ 274 ق.م) الذي نقش التعليمات الدينية على الصخور وعلى الأعمدة في الهند، فإن الهندوس

---

(1) Albright: Stone Age (64).

(2) Ghury: Learned Traditions ns (23 – 24).

(3) الأدب الهندي (34).

التزموا بالكتابة لأول مرة في القرن الثامن والتاسع بعد الميلاد، وذلك في كتابة كتبهم المقدسة الهندوسية[1].

ولهذا نرى أنه حتى مع معرفة الكتابة في هذا القطر فإن الذاكرة كانت تستخدم في التربية الدينية، والرحالة الصيني «Yuen Chwang» الذي زار الهند في القرن السابع الميلادي سَجَّلَ أنَّ التعاليم الشفهية والأحاديث الشفهية لعبت دوراً هاماً حتى حوالي القرنين: الحادي عشر والثاني عشر الميلادي، أي أنها لم تستخدم فترة طويلة إلا بعد إدخال الكتابة للأغراض الأدبية[2] وتعليمات «الفيدا»[3] في الهند استمر تعليمها من خلال التعاليم الشفهية لا من خلال الكتب، لأنَّ الكتابة في ذلك الوقت كانت تعد شيئاً غير مرغوب فيه، أما عن كيفية توصيل تعاليم «الفيدا» في ذلك الوقت فقد كان يتم شفهياً ولم يتم تعليمها كتابة إلا بعد أن أصبحت الكتابة ممارسة منظمة، بل وقسمت إلى اثني عشر جزءاً[4].

ويقول كبير معلمي «الفيدا سايانا»: إن نص «الفيدا» كان يتم تعليمه من خلال شفاه المدرس، وكان هذا النص يروق للأذن لا للعين، ولهذا لم يكن هناك حاجة للجوء إلى الكتابة[5].

أما العرب الذين تميَّزوا بامتلاكهم ذاكرة حافظة ممتازة فيقال: إنه كان لهم وجهة النظر السابقة نفسها تجاه الكتابة، وعلى الرغم من انتشار كتابة الأقوال المأثورة، والشعر، ومعلومات أخرى في المجلة، والروسم، والصحيفة في العصر الجاهلي، إلا أنَّ الثقافة العربية كانت شفهية أساساً، وتميز العرب بقدرة فائقة في الحفظ معروفة للطلاب من دارسي التاريخ.

ونحن نعرف جيداً أنَّ العربَ قبل الإسلام قد اعتادُوا أن يحفَظُوا عن ظهر قلب جداول الأنساب والقصائد الطويلة الخاصة بالأعمال الحربية لقبيلتهم، وحتى بَعْدَ ظهورِ الإسلام، فإنَّ ذاكرتهم التصويرية لا تبارى على مدار التاريخ.

---

(1) Learned Tradition

(2) المصدر السابق، ص (23 ـ 24).

(3) هي كتب الهندوس الدينية الأربعة أو واحد منها. (المترجم).

(4) المصدر السابق ص (16).

(5) المصدر السابق.

إن حماداً (المتوفى سنة 156 هـ)، من رواة الشعر الجاهلي استطاعَ أن يحفظ ما لا يقل عن مئة قصيدة وأكثر في كل حرف من حروف الهجاء في اللغة العربية[1]، أما الشّعبي (المتوفى سنة 107 هـ) فيقول: إنه عرف العديد من أبيات الشعر وحفظها عن ظهر قلب، وكان بإمكانه أن يستمرَّ في تلاوتها لمدة شهر دون مراجعة[2].

أما الأصمعي (المتوفى سنة 216 هـ) فقد حفظ عن ظهر قلب (15000) أرجوزة من القصائد، وأكثر من (12000) بيت من الرجز[3].

وعلى سبيل المثال أيضاً فإنَّ أبا تمام (المتوفى سنة 232 هـ) كان بإمكانه أن يتلو أكثر من (14000) بيت من شعر الجاهلية[4]، أما أبو ضمضم فقد استطاع أن يروي مقاطع من شعر مئة من الشعراء اسمهم «عمرو»[5].

وبسبب هذه الذاكرة الخارقة للعادة، لم يكن غريباً ألا يُظهر العرب اهتماماً ملحوظاً بالكتابة، وخاصة عندما كانت مادة الكتابة غير متوافرة بيد أنه مع ظهور الإسلام، وبعد الموقف المشجع للنبي ﷺ واتجاه الاهتمام بالقراءة والكتابة تغيرت وجهات النظر لصالح الكتابة، ولكن لم تتوقف مطلقاً عادة الحفظ وبطريقة مفاجئة.

وحتى في هذا الوقت الذي أصبحت فيه الكتابة شائعة إلى حدٍّ ما، استمرت الذاكرة تلعب دوراً حيوياً؛ فسنن وأحاديث النبي ﷺ وكثير من المعلومات الأخرى الهامة كانت تحفظ في مخزن الذاكرة، وكان يعد شرفاً عظيماً للمرء أن يحفظ أكبر عدد ممكن من الأحاديث والسنن في الذاكرة، وكان الناس يتباهون بقوتهم الفائقة في الحفظ[6].

وأعمال السير الذاتية تحتوي على أسماء العشرات من علماء الحديث الذين تميزوا بحفظِ الآلاف من الأحاديث، ومع أنَّ عددَ الأحاديثِ التي ذكرَ علماء الأحاديث أنهم

---

(1) الأغاني (6: 71)، تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان (2: 120).

(2) تذكرة الحفاظ (1: 79).

(3) تاريخ آداب اللغة العربية (2: 115).

(4) وفيات الأعيان (335).

(5) الشعر والشعراء (1: 4 ـ 5).

(6) Von Kremer's edition, JASB, 1856, p (212).

حفظوها كانت كبيرة جداً لدرجة يتعذَّر معها تصديقهم، إلا أنَّ النصوص تثبت أنهم كانوا يمتلكون ذاكرةً واعيةً قويةً.

ولقد بيَّنَتْ هذه النصوص أيضاً أنَّ حِفْظَ الأحاديث عن ظهر قلب كان يُعَدُّ ميِّزة بين الدوائر الدينية.

وحقيقة أن حفظ علماء الحديث لعدد كبير من الأحاديث ليست موضع استغراب لو نظرنا إليها من منظور تاريخي؛ فالقانون الطبيعي يقول: إنَّ الاستخدامَ المستمر لملكات إنسانية معينة يجعلها أقوى وأكثر استجابة، ولأن العرب الأوائل أعطوا اهتماماً للحفظ.

فقد نَمَتْ هذه القدرة لتصل إلى كامل قوتها، والاستخدام المستمر لهذه الملكة شجع القدرة على الحفظ، وأصبح العرب قادرين في النهاية على حفظِ فقرةٍ طويلة من الأحاديث، والقصائد، وجداول أنساب آبائهم.

وعن اهتمام الصحابة بالذاكرة يمكن أن نشير إلى أن ذاكرتهم الواعية لم تكن أقل درجة من عرب ما قبل الإسلام، إلا أنَّهُ مع شيوع الكتابة أثناء حياة النبي ﷺ لم يعد هناك اعتماد كامل على الذاكرة، وبدأ الناسُ في فترة ما بعد الإسلام في توظيف الكتابة بصورة أكبر من ذي قبل، ومن ثَمَّ أصبحت مَلَكَةُ الحِفْظِ عندهم أقل مما كانت عند آبائهم؛ إلا أنهم كانوا لا يَزالونَ جزءاً من ذلك العصر، هذا فضلاً عن أنهم كانوا بسطاء وأصلهم بدوي فكانت ذاكرتهم أقوى من ذاكرة أي جنس آخر في العالم.

وعلى الرغم من ثقتهم في ذاكرتهم القوية والاعتماد الكامل عليها فلم يعيروا الكتابة اهتماماً، ولقد رأينا وَضْعَ الكتابة قبل ظهورِ الإسلام، وأنه تم وضعها بعد ظهور الإسلام، ورأينا الاهتمام الذي أعطاه النبي ﷺ لها في الحقبة الأولى من الإسلام.

ومن تلك الفترة فصاعداً تقدم فَنُّ الكتابة باستمرار، وكان هذا الفن يستخدم بصفة خاصة في الأغراض الدينية والدنيوية، في حين استمرت الذاكرة تلعب دوراً هاماً في حفظِ ونقلِ الحديث، فلم تكن أبداً الوسيلة الوحيدة في رصد المعرفة، وفي فترة تسجيل الحديث استخدمت الكتابة جنباً إلى جنب مع الذاكرة.

ومع انتشار الإسلام حظيت الكتابة باهتمام كبير، فمع بداية نزول الوحي على النبي ﷺ كان أول اهتمامه: القراءة والكتابة[1] وأول آية بعد الهجرة طلبت من المسلمين أن يكتبوا كافة صفقاتهم سواءً كانت صغيرة أو كبيرة بالمداد الأبيض والأسود[2].

ووجد الكثير من الإشارات في القرآن فيما يتعلق بالكتابة وفوائدها، وهناك ذكرٌ كثير لكتاب[3]، وكتابة عموماً[4]، وقرطاس[5]، وقلم[6]، ومداد[7]، وصحف[8]، وما أشبه ذلك في القرآن الكريم.

فذكرُ هذه العناصرِ وتضمنها قائمةً طويلةً من أدواتِ الكتابة، والتأكيدُ على الكتابة حتى في الصفقات التجارية الصغيرة؛ أعطى العربَ قوةً دافعةً لتسجيلِ كافة أحاديث النبي ﷺ، وأوصى النبي ﷺ بصورةٍ مباشرة، وغير مباشرة باستخدامِ الكتابة، وأعطى أوامره الواضحة للأثرياء في كتابة الوصية، حيث قال: «ما من مسلم يملك مالاً ويحدده بوصيةٍ موجبة، فلنْ يُقْبَل منه أن يمرَّ ثلاث ليال دون كتابتها»[9].

ولهذا نرى أن كلا الوسيلتين تم استعمالهما في حفظِ المعلومات، ألا وهما: الذاكرة، والكتابة، وكلاهما كانا متوافرين للمجتمع المسلم الفتي، ليحفظَ سُنَّةَ النبي ﷺ.

---

(1) ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: 1 ـ 5).

(2) ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ (البقرة: 283).

(3) انظر لفظ (كتاب) في القرآن الكريم (آل عمران: 23)، والكتاب (الأنعام: 157)، والكتب (سبأ: 44)، مكتوب (الأعراف: 157).

(4) انظر «كَتَبَ» في القرآن الكريم (التوبة: 51)، كُتب (البقرة: 178)، يكتب (النساء: 81)، يكتبون (يونس: 21)، اكتب (الأعراف: 156)، كاتب (البقرة: 282).

(5) انظر (قرطاس) في القرآن الكريم (الأنعام: 7)، قراطيس (الأنعام: 91).

(6) انظر (قلم) في القرآن الكريم (القلم: 1)، (العلق: 4)، أقلام (لقمان: 27).

(7) انظر (مداد) في القرآن الكريم (الكهف: 109).

(8) انظر (صحف) في القرآن الكريم (عبس: 13)، صحفاً (البينة: 2)، الصحف (الأعلى: 10).

(9) طبقات ابن سعد (4: 1: 108).

أما عن الذاكرة فقد وَهَبَ الله العربَ ذاكرةً «حافظة واعية» فاستطاعوا أن يحفظوا آلاف الأحاديث عن ظهر قلب.

أما بالنسبة للكتابةِ فقدْ أوصى بها القرآنُ الكريم، والنبيُّ ﷺ، وفي ظلِّ هذه الظروف، فكلا المصدرين استخدما لحفظ السنة، وبعض الصحابةِ الذين عَرَفوا الكتابة فقد كتبوا الأحاديث في الصحيفة، في حين حُفِظت أحاديث أخرى عن ظهرِ قلب.

وفي السنوات الأخيرة أصبحت الكتابة والذاكرة سابقة لوجهات النظر، متعارضةً فيما يتعلق بكتابة الأحاديث، وهذا موضوع الفقرة التالية.

(أ) الجدل حول الذاكرة والكتابة:

لقد دار جدل طويل بين علماء الحديث حول تقييد أحاديث النبي ﷺ، وهل تم ذلك مشافهةً وحفظاً، أم كتابةً وتسجيلاً؟!

لقد كانت وجهات النظر متباينة منها ما كان يرى أن كتابة الحديث كانت الوسيلة التي دونت بها الأحاديث، بينما كان البعض يعارض ذلك، وكلُ تمسك بوجهة نظره، وفند حُجج الآخر.

فمعارضو الكتابة اعتبروا الذاكرة أصدق المصادر في حفظِ المعلومات، واعتقدوا أن الرجل عندما يكتب شيئاً بالمداد الأسود والأبيض يعتمد بشدة على المادة المكتوبة، ولا يتذكر هذا الشيء، وبهذه الطريقة يفشل الغرض من الكتابة.

ومن وجهة أخرى فعندما يحرم من الكتابة يضطر إلى أن يحفظ هذه المعلومات عن ظهر قلب.

ويعتقدون أن غياب الكتب شَحَذَ الذاكرة الواعية للمرء، ولهذا يعتبرون الذاكرة آمن الوسائل في حفظ المعلومات، ولهذا أوصوا بها لحفظِ الحديث[1]، أما بالنسبة للكتابة كوسيلة لحفظ الحديث فلم يوافقوا عليها.

وفي معارضة الكتابة حذر ابن سيرين (المتوفى سنة 110 هـ)، قائلاً: «احترس من الكتابة لأن الأجيال السابقة ضلت الطريق بسبب الكتب»[2].

---

(1) تقييد العلم (58).

(2) طبقات ابن سعد (7: 1: 141).

ويعلق محمد بن عون (المتوفى سنة 151هـ) فيقول: «هذه الكتب تقود الناس إلى الضلال»[1].

أما أحد معاصريه: الأوزاعي (المتوفى سنة 157هـ) فيقال أنه كان له الموقف نفسه بالنسبة للكتابة حيث قال: «عندما تصل المعرفة إلى الكتب تفقد نورها»[2].

أما إبراهيم النخعي (المتوفى سنة 96هـ) فقد قال: إنه لم يسبق له كتابة أي شيء[3] ويعطينا مبررات لعدم موافقته على مبدأ الكتابة فيقول: «إنه قلَّ ما كتب إنسانٌ كتاباً إلا اتكل عليه، وقلَّ ما طلب إنسان علماً إلا آتاه الله منه ما يكفيه»[4].

ونقل الجاحظ عن رجل قال ليونس بن حبيب:

«إن الكتب من أسوأ أوعية المعرفة»[5].

ومن جهة أخرى فإنَّ الموافقين يؤكدون على أن الكتابة تتفوق على الذاكرة.

فهذا أبو قلابة المتوفى (104هـ)، يقول:

«الكتاب أحب إليَّ من النسيان»[6].

وكان مع ابن عباس (م = 68هـ) ألواحاً يكتب فيها، وكان يقول: «قيدوا العلم، وتقييده كتابه»[7].

وقال: «خير ما قيد به العلم الكتاب»[8].

وتتضح أهمية الكتاب أيضاً من نَقْلِ تفسيرِ السُّوَرِ القرآنيةَ ذات الصلة الوثيقة بالكتابة، ويعلق الطبري في معرض تفسيره للآية القرآنية ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾[9].

---

(1) الموضع السابق.

(2) جامع بيان العلم (1: 68)، سنن الدارمي (1: 12)، تقييد العلم (64).

(3) طبقات ابن سعد (6: 189)، المحدث الفاصل (36ب).

(4) طبقات ابن سعد. الموضع السابق.

(5) الحيوان (1: 61).

(6) جامع بيان العلم (1: 72)، تقييد العلم (103).

(7) تقييد العلم (92).

(8) المصدر السابق.

(9) القرآن الكريم (الكهف: 83).

بأنَّ كلمة «الكنز» ـ طبقاً لآراء بعض المفسرين تشير في هذه الآية إلى صُحفٍ فيها علم مُدَوَّنٌ[1].

أما أبو الدرداء المتوفى (سنة 31/ 32هـ) فقد فسَّرَ الآية بحديث عن النبي ﷺ، قال: «صحف علم خبأها لهما أبوهما»[2].

وأيد ابن عباس وجهة النظر هذه عندما قال: إنَّ الكنزَ لا يشير إلى الذَّهبِ أو الفضة، بل إلى كنز المعرفة[3].

وتعليقاً على تفسير ابن عباس، يقول الحسن بن صالح (المتوفى سنة 169هـ): «أي كنز أفضل من العلم!»[4].

وبتفسير كلمة كَنز بمعنى معرفة مكتوبة، وعلم مدون، يوضح أن أهمية الكتابة كانت موضع اهتمام القرآن الكريم، وتُوجد بالفعل سور عديدة في القرآن لم تجز الكتابة فحسب؛ بل أوصى باستخدامها في معاملات الحياة اليومية، ومن الآيات التي أوضحت أهمية وضرورة الكتابة:

أ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾ (سورة البقرة: الآية 282).

ب ـ وعندما اتهم اليهود الله سبحانه وتعالى بجعلهم يتجنبون البنات فند الله سبحانه وتعالى ادعاءاتهم الكاذبة وقال: ﴿فَأْتُواْ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (سورة الصافات: الآية 157).

جـ ـ وعندما أنكر اليهود نزول الوحي بكتابٍ من السماء على النبي ﷺ، يقول القرآن: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ سورة الأنعام: الآية 92).

---

(1) تقييد العلم، ص (117).

(2) تقييد العلم، ص (117).

(3) الموضع السابق حيث قال: «صحف علم».

(4) تقييد العلم (118).

د ـ وفي معرض دَحْضِ الله سبحانه وتعالى لادعائهم بأن لـه شريـك سـألهم الله أن يأتوا بدليل ﴿ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ (سورة الصافات: الآية 157) ومن هنا نجد أن أهمية الكتابة كان معترفاً بها بشهادة القرآن والرسـول ﷺ، والنبـي ﷺ لم يـشجع اسـتخدام الكتابـة فحـسب، ولكـن اسـتخدمها بنفـسه في الأغـراض الـسياسية، والدينيـة، وحـذا الصحابة المتعلمون والتابعون حذو النبي ﷺ، فسجلوا أحاديثه في «الصحيفة».

ـ ومع أن الفاروق عمر كان يوصف بأنه واحد من أَشَدِّ المعارضين لكتابةِ الحديث، وحرق كل السجلات المكتوبة الموجـودة في ذلـك الوقـت المتعلقـة بالأحاديـث، إلا أننـا وَجَدْنا نصوصاً جديدةً تبين اتجاهه المؤيد للكتابة، وقصة اهتمامه بجمع مجموعة الأحاديث معروفة وموثقة، وليس هناك سبب محدد عن تفكيره في البداية بجمع الأحاديث ثم تخليـه عن هذه الفكرة ككل[1].

ولا يمكن من هذه الرواية أن نستنتج أنَّ الفاروق عمـر لم يكـن راغبـاً في تـسجيلِ الأَحَاديث والاحتِفَاظِ بها في كُتبٍ، وإذا وضـعنا نُـصْبَ أعيننـا غيرتـه الدينيـة، واهتمامـه الشديد بالمسائل التشريعية نخرج بنتيجة متناقضة.

ويبدو أن هذا الكم الهائل من الأحاديث أثناء فترة خلافته كان سيعرض نقـاء الـنص القرآني للخطر، وخشي الفاروق عمر من أنَّ مجموعـة الأحاديـث ربـما تـدخل في صراعٍ مـع النص القرآني، ولهذا حظر تدوين الحـديث بطريقـة رسـمية، وعليـه فـرغم رغبتـه في حفـظ الأحاديث في كتب لم يستطع أن يفعل ذلك باهتمام أوسع، وعلى مستوى المجتمع ككل.

أما عن تأييده لكتابة الحديث فواضح من مقولة يقول فيها: «قيدوا العلم بالكتاب»[2].

ونصيحته بجمع العلم = (الأحاديث)، وتعود أن ينقل الأحاديث بنفسه عن النبي ﷺ في كتبه الرسمية[3]، وجمع الوثائق الخاصة بالزكاة والخراج والمسائل الماليـة الأخـرى[4]، وهو نفسه الذي أدخل نظام الدواوين في الأعمال الرسمية[5].

---

(1) طبقات ابن سعد 3: 1: 206)، كتاب العلم لأبي خيثمة زهير بن حرب (مخطوط)، لوحة (4أ).

(2) جـامع بيـان العلـم (1: 72)، سـنن الـدارمي (1: 127)، تقييـد العلـم (88)، المحـدث الفاصـل (مخطوط)، لوحة (36أ).

(3) صحيح البخاري (4: 82 ـ 83) في كتاب اللباس، سـنن ابـن ماجـة (2: 166)، الأمـوال (362 ـ 363، 366)، وغيرها.

(4) سنن أبي داود (2: 133 ـ 134)، في الزكاة، الحديث رقم (1570)، كتاب الأموال (362 ـ 363 ـ 366).

(5) طبقات ابن سعد (3: 2: 202 ـ 203).

وكل هذه الحقائق تبين أنه لم يكن ضد كتابة الحديث، أما عن سبب عدم جمعه للأحاديث فظاهر في حرصه الزائد تجاه القرآن، ولكي يحافظ على نقاء النص القرآني لم يرغب في إضفاء الصيغة المادية على السنة ويكتبها.

بالإضافة إلى الفاروق عمر، اعتقد صحابةٌ آخرون في تفضيل الكتابة على الذاكرة، أما الإمام علي بن أبي طالب ـ رضي الله عليه ـ فقد كان بحوزته صحيفة مكتوب فيها بعض الأحاديث التشريعية، وشجع على كتابة الأحاديث، ونَصَحَ النَّاسَ بإنفاق أموالهم على شراء موادّ الكتابة[1] ليحفظوا الأحاديث فيها[2].

وتأثر بدعوته هذه الحارث بن عبدالله الأعور (المتوفى سنة 65هـ) فقام بشراء بعض الصحف ودوَّن فيها بعض الأحاديث[3].

وحذا الحسن بن علي (المتوفى سنة 50هـ) حذو أبيه، ونَصَحَ أبناءه وأبناء أخيه الحسين أنْ يحْفظوا العلم (الحديث) بشكلٍ مكتوب، وأن يخصصوا سجلاً دائماً لذلك في بيوتهم[4].

أما ابن عباس (المتوفى سنة 68هـ) والذي يعدّ من أعظم مؤيدي كتابة الحديث، فقد اعتادَ أن يحْمِلَ معه ألواحاً مكتوبة، وأثر عنه قوله: «قيدوا العلم بالكتاب»[5].

وقوله: «خير ما قيد به العلم: الكتاب»[6]. وشجع تلاميذه على شراء مواد الكتابة ليحفظوا الأحاديث فيها[7].

---

(1) تقييد العلم (90 ـ 91)، حيث روي عن الإمام علي قوله: «قيدوا العلم بالكتاب»، وقوله: «من يشتري مني علماً بدرهم»، قال أبو خيثمة أي: «يشتري صحيفة بدرهم يكتب فيها العلم». (المترجم).

وانظر أيضاً: طبقات ابن سعد (6: 116)، والمحدث الفاصل لوحة (35أ) من النسخة المخطوطة.

(2) تقييد العلم (90 ـ 91)، والمحدث الفاصل (35أ).

(3) طبقات ابن سعد (6: 116).

وفي تقييد العلم ص (90) روى الحارث عن الإمام علي أنه قال: «من يشتري مني علماً بدرهم»، قال: «فذهبت فاشتريت صحفاً بدرهم ثم جئت بها». (المترجم).

(4) سنن الدارمي (1: 126)، جامع بيان العلم (1: 83)، تقييد العلم (91).

(5) كتاب العلم لأبي خيثمة لوحة (11ب)، تقييد العلم (92).

(6) تقييد العلم (92).

(7) تقييد العلم (92).

أما أنس بن مالك (المتوفى سنة 93هـ) فكان يعتقد اعتقاداً جازماً بأنَّ الكتابة أفضل بكثير من الذاكرة، واعتاد أن يقول:

«كنا لا نعد علم من لم يكتب علمه علماً»[1].

ويذكر أنه ذات مرة عندما سمع حديثاً هاماً من النبي ﷺ طَلَبَ مِنْ أبنائِه أن يُدَوِّنوه[2].

وأعطى تعليمات عامة لأبنائه ليحفظوا المعرفة في كتب «قَيِّدُوا العِلْمَ بالكتاب»[3].

ومن الجدير بالذكر أن نُشيرَ إلى أنَّ كلمة معرفة (علم) في المقولات السابقة استخدمت بمعنى أحاديث النبي ﷺ، لا بالمعنى الحرفي لها.

ـ ويحتفظ كتاب الأغاني برواية طريفة عن «ذي الرمة»، فيما يختص بالكتابة والذاكرة. فيذكر أن «ذا الرمة» (المتوفى سنة 117هـ) سُئل ذات مرة «أيُّ هذين التعبيرين صحيح في الهجاء:

1 ـ عزيزاً بن الله، أو:

2 ـ عزير بن الله»؟

وأجاب «ذو الرمة» بأن الكلمة التي تحتوي على حروف أكثر هي الصحيحة، أي العبارة الأولى، وحينئذٍ سأله السائل عما إذا كان يعرف فن الكتابة (حيث يستطيع بها أن يحسب عدد الحروف التي تحتويها كل عبارة). وعند سماع ذو الرمة هذا وضع إصبعه على فمه، وقال: «على الرغم من معرفتي بالكتابة إلا أنني سأخفي هذه الحقيقة في هذه اللحظة، لأننا سنعتبرها مسألة غير ذات أهمية بيننا»[4].

إنَّ المقولة السابقة تبين بوضوح أن الصراع بين الكتابة والذاكرة لا يزال على أشده في عصر «ذي الرمة»، مع أنه يبدو من هذا النص أن الرأي العام في ذلك الوقت كان مؤيداً للذاكرة.

---

(1) تقييد العلم (96). وينسب نفس القول لمعاوية بن قرة المتوفى (113)هـ، كما في جامع بيان العلم، ص (1: 74)، تقييد العلم (109).

(2) تقييد العلم (96).

(3) تقييد العلم (96 ـ 97)، جامع بيان العلم (1: 73)، طبقات ابن سعد (7: 1: 14).

(4) الأغاني طبعة بولاق (16: 121).

ومن الواضح أيضاً أنَّ ضرورة الكتابة كانت موضع اعتراف من العلماء الذين اعتادوا أن يكتبوا ولو سراً و «ذو الرمة» نفسه الذي حاوَلَ أن يخفي في النص السابق معرفته بفن الكتابة؛ ففي نص آخر يعبر عن كراهته للذين يعتمدون على الذاكرة، ويقول لعيسى بن عمر: «اكتب شعري، فالكتاب أعجب إليَّ من الحفظ»[1].

وهذه أيضاً وجهة نظر لآخر الشعراء المخضرمين من شعراء الجزيرة العربية.

أما إذا نظرنا إلى آراء أهل الحديث بخصوص الكتابة والذاكرة فيقول ابن جريج (المتوفى سنة 150 هـ): «اكتب، فما قيد العلم بشيء، مثل الكتاب»[2].

وعلى سبيل المثال أيضاً روى معتمر بن سليمان (المتوفى سنة 187 هـ) أن أباه كتب له: «اشتر الكتب، واكتب العلم، فإن المال يذهب، والعلم يبقى»[3].

أما الجاحظ الذي يعتبر واحداً من أعظم محبي الكتب فقد برهن على علوّ شأن الكتابة عن الحفظ بالاستشهاد بالقصة القرآنية الخاصة بسليمان وملكة سبأ والتي ذكر فيها كلمات كتاب، رسالة، وعلم مراراً وتكراراً، وذُكِرَ أيضاً في، القرآن الكريم أنه قد تم تبادل الخطابات بين سليمان وأهل سبأ[4].

ومن كل هذا يستنتج الجاحظ أن الكتابة أفضل من الرسائل الشفهية وأدلى الجاحظ بدلوه في أهمية الكتابة وتفوقها على الذاكرة[5] حين قال: «إذ لم تصنف وتجمع الكتب، فستبطل المعرفة وتتعرض للضياع، وستتغلب ملكة النسيان على ملكة

---

(1) تقييد العلم (119)، وبقية الخبر قول ذي الرمة: «إن الأعرابي ينسى الكلمة قد سهرت في طلبها ليلة، فيضع في موقعها كلمة في وزنها، ثم ينشده الناس، والكتاب لا ينسى، ولا يبدل كلاماً بكلام». (المترجم).

وانظر أيضاً: Guill Auvme, The Tradition of Islam الصفحة رقم (16)، وكتاب الحيوان للجاحظ (1: 41).

(2) تقييد العلم (112 ـ 113).

(3) تقييد العلم (112)، وجامع بيان العلم (1: 58)، والمحدث الفاصل (35ب).

(4) يقول القرآن الكريم ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ القرآن الكريم (النمل: 28 ـ 30).

(5) الحيوان (1: 97).

الحفظ»[1]، واستشهد بهذه الصفة في كتابه «الحيوان» الذي بين فيه أيضاً أهمية الكتابة حين قال: «اللوح الأسود أفضل من اللوح الأبيض»[2].

أما ابن الصلاح (المتوفى سنة 643هـ) فيعتبر الكتب أفضل من الأوعية في حفظ المعرفة، ويشير إلى جمع الحديث ويقول: «إذا لم تجمع الأحاديث في كتب ستضيع»[3].

ب ـ المؤيدون والمعارضون لكتابة الحديث:

إنَّ قضية تفوق الحفظ على الكتابة أو العكس ظلَّت قضية قائمة وبدون حل لفترة طويلة، وكانت موضعاً لنقاش طويل مع نهاية القرن الأول من الهجرة، والآراء المتضاربة في تأييد أو مناهضة الكتابة والحفظ تمثل وجهات نظر لفريقين متنافسين من علماء الحديث في الحقبة الإسلامية الأولى، ويمكن أن نقسم هؤلاء العلماء إلى مجموعتين:

مجموعة مؤيدة لكتابة الحديث، ومجموعة رافضة لذلك، على الرغم من أن الأغلبية كانت هي المؤيدة لكتابة الحديث في بعض مراحل حياتهم.

وهؤلاء الذين رفضوا تدوين الحديث إما انتقلوا بعد ذلك إلى الجناح المؤيد للكتابة وذلك في أواخر حياتهم، وإما ندموا لعدم كتابتهم الحديث في بداية حياتهم، ومع هذا فقط ظلت فئة قليلة معارضة لكتابة الحديث حتى نهاية حياتهم لأنهم كانوا مقتنعين بوجهة نظرهم بأنهم إذا أقدموا على هذا سيهدموا ما تم كتابته بالفعل[4]، بيد أن كل هذا حدث بدافع من الإخلاص الكامل للعقيدة، ومن بين هذه المجموعة قام علماء الحديث إما بالتخلص، من المجموعات المكتوبة بأنفسهم أو تركوا وصية لأبنائهم ليدفنوا أو يحرقوا هذه الكنوز المكتوبة.

وبعض أئمة الحديث كتبوا الأحاديث بغرض الحفظ وهؤلاء العلماء تخلصوا أيضاً من المجموعات المكتوبة بعد أن أصبحوا من مؤيدي الحفظ. ولأن هؤلاء العلماء كتبوا بالفعل الأحاديث فهم لا يعدون معارضين لكتابة الحديث.

---

(1) الحيوان (1: 47).

(2) الحيوان (1: 58).

(3) Robson, Tradition, the second Foundation of Islam Muslim World XLI: I (January, 1951) p. 26.

وانظر علوم الحديث لابن الصلاح، طبعة حلب (1350هـ) = (1931م). ص (71).

(4) Historical Sources, (114 – 115).

ولهذا فعلماء الحديث يمكن تقسيمهم إلى فئتين كبيرتين:

الأولى: المعارضون لكتابة الحديث:

إن هذه المجموعة من العلماء عارضوا كتابة الحديث، وفضلوا النقل الشفهي للحديث فقط، ومع مرور الزمن فإنَّ عدد هؤلاء العلماء أخذ يتناقص بسبب انتقالهم التدريجي للمعسكر المنافس من المؤيدين.

الثانية: المؤيدون لكتابة الحديث:

أما المجموعة الثانية التي فضَّلت الكتابة على الذاكرة فقد تبنت فكرة تدوين الحديث، وبدأ عدد من علماء هذه المجموعة يتزايد باستمرار، وذلك لأنَّ العلماء كانوا ـ بعد ذلك ـ يؤيدون وجهة نظر هذه المجموعة بعد إدراك أهمية الكتابة.

فالعلماء الذين فضلوا كتابة الحديث عن الحفظ، والعلماء الذين لم يمارسوا كتابة الحديث بطريقة عملية وندموا لعدم قيامهم بذلك ولهذا انضموا في آخر حياتهم إلى هذه المجموعة.

ونحن نجد أن قائمة المؤيدين ضمت في ثناياها فئة وجدت أسماؤها مع المجموعتين، ويرجع هذا إلى حقيقة المقولات المتناقضة التي وصلت إلينا عن آرائهم.

ولنأخذ مثالاً لذلك، فعلماء مثل سعيد بن جبير (المتوفى سنة 94هـ) وسعيد بن المسيب (المتوفى سنة 94هـ) وعامر بن شراحيل الشعبي (المتوفى سنة 105هـ)، كانوا يعدون من معارضي كتابة الحديث حسب رواية: ابن سعد[1]، والخطيب البغدادي[2]، وابن عبد البر[3]، وطاش كبرى زادة[4] بصفة خاصة، بينما يعتبرهم آخرون من مؤيدي كتابة الحديث[5].

---

(1) طبقات ابن سعد (6: 179).

(2) تقييد العلم (20).

(3) جامع بيان العلم (1: 76).

(4) سفر السعادة (2: 233).

(5) طبقات ابن سعد (6: 179)، تقييد العلم (100، 103)، جامع بيان العلم (1: 72)، علوم الحديث لابن الصلاح (43)، بحوث في تاريخ المشرفة (148).

ويُحكى عن سعيد بن جبير أنه دَوَّنَ الحديث عن ابن عباس، وذكر أنه كان معنياً بكتابة الحديث لدرجة أنه أثناء رحلة له سَمِعَ بعض الأحاديث من ابن عباس، وابن عمر، واعتاد أن يدونها وهو على واسطة رحله، في طريقه إلى البيت الحرام، وينقلها في مذكراته بعد ذلك[1].

وفي نص آخر ذُكِرَ أَنَّهُ قال: كنت أكتب عند ابن عباس ما يمليه في كراستي، وعلى سعف النخل، بل وحتى على حذائه { في ألواحي، في صحيفتي، وفي سُعف النخيل وفي نعلي، وفي ظهر نعلي }[2].

وهو نفسه لم يعترض عندما كتب تلاميذه الأحاديث عنه[3]، وهذا في حد ذاته دليل على اتجاهه المؤيد للكتابة.

وأما عامر الشَّعْبي فكان واحداً من المهتمين الأوائل بجمع الكتب وذكر أنه كان لديه «كتاب الفرائض»[4]، «كتاب الجراحات»[5]، وأعمال «المغازي»[6] وعدد من الوثائق القليلة لأحاديث خاصة بالمسائل التشريعية[7]، وعليه فذكر اسمه ضمن معارضي كتابة الحديث يعد رؤية خاطئة فلقد كان في منتهى الحرص على الاحتفاظ بسجلات مكتوبة للأحاديث لدرجة أنه طلب من تلاميذه أن يدوِّنوا كل شيء يسمعونه، فإذا لم تتوافر لهم مادة الكتابة فليدونوا على الحائط[8].

أما «سعيد بن المسيّب» و«الضحاك بن مزاحم» فقد كانا من المؤيدين المتحمسين[9] لكتابة الحديث وليسا من المعارضين، وقد ذُكِرَ عن الضحاك بن مزاحم أنه قال: «عندما

---

(1) المحدث الفاصل (77ب)، طبقات ابن سعد (6: 179)، تقييد العلم (103)، جامع بيان العلم (1: 72).

(2) طبقات ابن سعد (6: 179)، وتقييد العلم (102)، والمحدث الفاصل لوحة (35ب).

(3) تقييد العلم (103).

(4) تهذيب التهذيب (9: 177)، وتاريخ بغداد (12: 232).

(5) تاريخ بغداد (12: 232).

(6) تهذيب التهذيب (10: 40)، الجرح والتعديل للرازي (4: 1: 361)، تاريخ بغداد (12: 230).

(7) الكفاية (386).

(8) طبقات ابن سعد (6: 174)، والمحدث الفاصل (36ب).

(9) بحوث في تاريخ السنة المشرفة ص (148)، وجامع بيان العلم (1: 72).

أسمع شيئاً أكتبه حتى ولو على الحائط»[1]، وكتب تفسيراً للقرآن[2]، كما كتب كتاباً عن المناسك لحسين بن عقيل[3].

وتوضح المقولة السابقة بما لا يدع مجالاً للشك أنَّ أهْلَ الحديث الذين ذكرناهم لم يكونوا من معارضي كتابة الحديث، وينطبق هذا أيضاً على أغلبية من أطلقنا عليهم: معارضي تدوين الحديث، وبعد قراءة هذه النصوص المتضاربة عن وجهات نظر أهل الحديث بخصوص كتابة الحديث. يمكن أن نستنتج أن أحد النصوص غير صادقٍ، أو أنَّ أئمة الحديث هؤلاء كانوا معارضين لكتابة الحديث في البداية، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى المجموعة المؤيدة لكتابة الحديث، والاحتمال الثاني هو الأكثر مصداقية.

ومن بين المجموعة المؤيدة نجد أسماءً لعلماء ندموا في أواخر حياتهم لعدمِ تسجيلهم للحديث بالمداد الأسود والأبيض، وإلى هذه الفئة تنتمي هذه الأسماء: عروة بن الزبير (المتوفى سنة 94هـ)، ومنصور بن المعتمر (المتوفى سنة 132هـ)[4].

ويذكر عن عروة بن الزبير أنه قال:

«كتبت الحديث ثم محوته، فوددت أني فديته بمالي وولدي وأني لم أمحه»[5].

ويعبر عروة بن الزبير عن خسارته بهذه الكلمات «إنني لم أكتب ولكني تعودت أن أحفظ» وأندم الآن على عدم الكتابة حتى ولو كنت حفظت نصف ما سمعته فحسب[6].

أما يحيى بن سعيد (المتوفى سنة (144 هـ) فيذكر عنه أنه كان يتحسر لعدم كتابته الأحاديث[7].

وفي الوقت نفسه وجدنا في مجموعة المؤيدين الذين فضلوا الكتابة كوسيلة مساعدة للحفظ فقط أنهم استحسنوا الكتابة كوسيلة مساعدة للذاكرة، وإلى هذه الفئة من أئمة

---

(1) جامع بيان العلم (1: 72).

(2) الجرح والتعديل (1: 2: 319)، الفهرست (51).

(3) جامع بيان العلم (1: 72).

(4) تقييد العلم (60)، جامع بيان العلم (1: 75)، طبقات ابن سعد (6: 189).

(5) المحدث الفاصل، اللوحة (35ب)، وتقييد العلم (60)، وجامع بيان العلم (1: 75).

(6) المحدث الفاصل اللوحة (40أ)، وتقييد العلم (60).

(7) تقييد العلم (111)، وجامع بيان العلم (1: 74).

الحديث ينتمي «مسروق بن الأجدع»[1] (المتوفى سنة 63هـ)، ومحمد بن سيرين[2] (المتوفى سنة 110هـ) وخالد الحذّاء[3] (م: 141)، وعبد الرحمن بن حرملة[4] (م ـ 145) وسفيان الثوري[5] (م ـ 161)، وعاصم بن ضمرة[6] (م ـ 174) ويبدو أن الأصل في هذه الممارسات يرجع إلى عصر النبي ﷺ لأننا وجدنا أحاديث منوعة تجيز كتابة أحاديث النبي ﷺ بدعوى ضعف الذاكرة، ولهذا فأبو هريرة (المتوفى سنة 59هـ)[7]، وعبدالله بن عمرو ابن العاص (المتوفى سنة 65هـ)[8]، ورافع بن خديج[9] (المتوفى سنة 74هـ) والأنصاري[10] الذي لم يعرف اسمه الأول، وبعض الصحابة مجهولي الاسم[11]، كل هؤلاء تقدموا بشكوى إلى النبي ﷺ بأنهم لا يملكون ذاكرة قوية ليتذاكروا أقواله، وطلبوا منه الإذن بتسجيلِ أقوالهِ كِتابةً.

وليس معنى هذا أن التصريح بكتابة الحديث لا يُعطى إلا في حالة ضعف الذاكرة، لأنّنا رأينا في حالة «أبي شاه» اليمني الذي تلقى نصيحة النبي ﷺ كتابةً لم تطرح مسألة الذاكرة على الإطلاق، فقد كان لهذا الرجل مطلباً متواضعاً هو أن يتلقى هذه النصيحة كتابة، وأمَرَ النبي ﷺ شخصاً ما ليكتبها له[12].

---

(1) جامع بيان العلم (1: 66)، تقييد العلم (58 ـ 59).

(2) طبقات ابن سعد (7: 1: 141)، المحدث الفاصل (36ب).

(3) تقييد العلم (59)، علوم الحديث لابن الصلاح (78).

(4) تقييد العلم (99)، جامع بيان العلم (1: 73)، تاريخ فارس (1: 273) دراسات إسلامية لجولد تسيهر (2: 196 ـ 197).

(5) سنن الدارمي (1: 125)، تقييد العلم (58)، علوم الحديث (78).

(6) تقييد العلم (59)، علوم الحديث (78).

(7) طبقات ابن سعد (4: 2: 56).

(8) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة (365)، سنن الدارمي (1: 125)، جامع بيان العلم (1: 73)، طبقات ابن سعد (7: 2: 189)، المحدث الفاصل (34أ) = مخطوط.

(9) تقييد العلم (75)، مجلة المنار (10: 763)، المحدث الفاصل (35أ).

(10) تقييد العلم (65 ـ 67)، صحيفة همام بن منبه لحميد الله (21 ـ 22)، المحدث الفاصل (35أ).

(11) تقييد العلم (65 ـ 66).

(12) المحدث الفاصل مخطوط (34أ).

ج ـ أصل منشأ الجدل حول الكتابة والذاكرة:

تثار هذه القضية بالشكل الآتي: متى بدأ الجدل حول الكتابة والذاكرة؟

فطبقاً لرواية «Guillaume» فإنَّ هذا الجدل يعود إلى العصر الذي بدأ فيه «الجرح والتعديل»، يأخذ مساره[1] ويرى شبرنجر «Sprenger» أنَّ عام (60هـ) هو التاريخ المحتمل لإثارة هذا الخلاف حول شرعية كتابة الحديث[2]، ولكن أكثر الاحتمالات قبولاً هو أن منشأ هذا الخلاف يرجع إلى عَهْدِ خِلافة الفاروق عمر[3]، لأنه من أجل الحفاظ على نقاء القرآن الكريم مَنعَ تدوين الأحاديث، بل وحرق بعض المحفوظات بعد صدور أمره هذا[4].

ومنع عمر إعطاء اهتمامات أكبر أثناء خلافته لجمع النصوص الحديثية حتى لا تشبه القرآن الكريم يشير ضمناً إلى أن الحديث كان قد كُتِبَ عندما أصدر عمر أوامره بالمنع من جمعه كما جُمع القرآن الكريم، وهذا أدى إلى الخلاف في الرأي بين الصحابة والتابعين:

(فبعضهم) تمسك بالأوامر الصادرة، وتخلّى عن كتابة الحديث.

(وآخرون) استمروا في كتابة الحديث سراً مخالفين مخالفة تامةً الأوامر الرسمية.

وبهذه الطريقة أصبحت أوامر الفاروق عمر بالتخلي عن كتابة الحديث نقطة البداية في هذا الجدل.

أما بالنسبة لحفظِ الحديث لكونه ضرورة فلم يكن هنالك خلاف حول هذه القضية في ذلك الوقت لأن الفاروق عمر نفسه اتخذ خطوات عملية في الحفاظ على الحديث، ونشر سُنَّة النبي ﷺ ولكن الخلاف الأساسي كان حول طريقة حفظه.

وفي أعقاب صدور هذه الأوامر، تخلت فئة قليلة من الصحابة عن ممارسة كتابة الحديث، ووجدنا قلة من الصحابة الذين تم وصفهم بأنهم ظلوا معارضين أقوياء لكتابة الحديث حتى نهاية حياتهم، أما الأغلبية فبعضها التزم بالأوامر الصادرة لفترة

---

(1) Guillaume: the Traditions of Islam (17).

(2) نشأة الكتابة ص (380 ـ 381) بحث في جريدة البنغال الآسيوية لعام (1856).

(3) تقييد العلم (57)، جامع بيان العلم (1: 64)، مجلة المنار (10: 767).

(4) طبقات ابن سعد (5: 140)، وتقييد العلم (52).

قليلة والبعض الآخر لم يلتزم بتلك الأوامر أصلاً، وشغلوا أنفسهم بقراءة وتسجيل الحديث سراً.

ومما يعجب له المرء أن عبدالله بن عمر (المتوفى سنة 74هـ) تخلى عن فكرة معارضة كتابة الحديث في أخريات حياته.

إن هذا الخلاف الذي نشأ في عَهْدِ الفاروق عمر ظَلَّ قائماً لعدة قرون، ونتيجة لهذا الخلاف وجدنا أسماء من المؤيدين والمعارضين لكتابة الحديث في القرون الثلاثة الأولى الهجرية، بل وحتى في القرن الثالث الهجري فإن روزنثال «Rosenthal» يقول: «يبدو من المقبول أن كل فروع الأدب (بما في ذلك الأحاديث بالطبع) اعتمدت في حفظها على نصوص مكتوبة وثابتة»[1].

7 ـ بين مؤيدي تدوين الحديث ومعارضيه:

بعد مناقشة قضية علو شأن الحفظ على كتابة الحديث، أو العكس، دعونا نلقِ نظرةً على النصوص المتضاربة المنسوبة إلى النبي ﷺ سواءً كانت هذه النصوص مؤيدة لتدوين الأحاديث أم معارضة لتدوينها.

فالمجموعات التقليدية من الأحاديث تحتوي على أحاديث كثيرة أَذِنَ فيها النبي ﷺ بتدوين أقواله، وفي الوقت نفسه تحتوي على عدد ضخم من الأحاديث منع فيها النبي ﷺ كتابةَ الحديث، وسوف نناقش هذه الأحاديث الآن لنشرح مدى وأسباب هذا التناقض.

أ ـ نماذج من هذه الأمثلة:

ونحن في معرض حديثنا عن منع كتابة الحديث، فقد نقل لنا أبو سعيد الخدري (المتوفى سنة 74هـ) قول النبي ﷺ:

«لا تكتبوا عني أي شيء سوى القرآن[2] ومن كتب عني شيئاً (سمعه) عدا القرآن فليمحه»[3].

---

(1) Rosenthal, Franz; the technique and Approach of muslim scholarship. P. (6).

(2) وفي رواية أخرى: عدا التشهد = (تقييد العلم: 93)، والرسائل (تقييد العلم: 43).

(3) سنن الدارمي (1: 119)، وجامع بيان العلم (1: 63).

وفي حديث آخر ذكر أبو سعيد «استأذنت النبي ﷺ أن يأذن لي بكتابة الحديث فأبى أن يأذن لي»[1].

وأعطى أبو هريرة (المتوفى سنة 59هـ) رواية أخرى حيث ذكر أن النبي ﷺ رآه ذات مرة ومعه آخرون يقرؤون شيئاً وباستفساره منهم عما يقرؤونه، ذكروا أنهم يقرؤون أقوالاً سمعوها منه، وعند ذلك منع النبي ﷺ عليهم كتابة هذه الأقوال[2].

وذكر زيد بن ثابت (المتوفى سنة 45هـ) حديثاً آخر في المنع حيث روى أن النبي ﷺ لم يسمح بتدوين أقواله[3].

وفي مقابلة هذه الأحاديث وغيرها من الأحاديث التي تمنع الكتابة[4] فمؤيدو كتابة الحديث يستشهدون بأحاديث الرخصة في الكتابة، حيث أعطى النبي ﷺ فيها تصريحاً بتدوين أقواله ﷺ وطبقاً لأحد الأحاديث المعروفة في هذا السياق حديث عبدالله بن عمرو ابن العاص (المتوفى سنة 65هـ) في أنه سعى إلى التصريح بتدوين أحاديث النبي ﷺ التي قرأها بالنقل[5].

ويذكر أيضاً أنَّ رافع بن خديج (المتوفى سنة 74هـ)[6]، وأنس بن مالك (المتوفى سنة 91هـ)[7] حَصَلا على تصريح مماثل[8]، وكذلك أحد الصحابة من الأنصار مجهول الاسم[9]، وكذلك أشخاص آخرون لم تعرف أسماؤهم، ويكثر عدد الأحاديث المصرح

---

(1) تقييد العلم (32 ـ 33)، وسنن الدارمي (1: 119)، جامع الترمذي (5: 134) في كتاب العلم، المحدث الفاصل (136أ).

(2) تقييد العلم (33 ـ 35).

(3) جامع الترمذي (54: 134) في كتاب العلم.

(4) تقييد العلم (93)، السنة ومكانتها للسباعي (238).

(5) طبقات ابن سعد (7: 2: 189)، جامع بيان العلم (1: 73)، تقييد العلم (68)، البيان والتبيين للجاحظ (2: 42)، مجلة المنار للشيخ محمد رشيد رضا (10: 766).

(6) تقييد العلم (72).

(7) تقييد العلم (69)، البيان والتبيين (2: 42، 39).

(8) تقييد العلم (65 ـ 68).

(9) تقييد العلم (65 ـ 66).

بها وخاصة مجموعة الأحاديث التقليدية، والأحاديث التالية ربما تكون بمثابة أمثلة لذلك.

ففي معرض ردّ النبي ﷺ على كثيرٍ من الاستفسارات التي قدمت إليه في مناسبات مختلفة ذكر أنه قال: «احفظوا الحديث كتابة» { قيدوا العلم بالكتاب }[1].

«استعن على الحفظ بيمينك»[2]، يعني اكتب عني لأنه من لدن عليٍّ قدير وما يخرج من فمي إلا: الصدق[3].

إن الأحاديث السابقة تعطينا أدلة مباشرة وغير مباشرة على موافقة النبي ﷺ على تسجيل أقواله، ووجدت هذه الأحاديث جنباً إلى جنب مع الأحاديث التي تمنع الكتابة في مجموعة الأحاديث المعترف بها أو المقبولة.

ب ـ التوافق:

رأينا فيما سبق وجود نوعين من الآثار بالنسبة لتدوين الحديث:

(أحدهما) يسمح، و(الآخر) يمنع تدوين أي نص سوى القرآن الكريم، ويبدو أن هناك تناقضاً بين هذه الاثار مما هيأ لمناقشة علمية منهجية حول هذه الأحاديث مع الطلاب المتخصصين في دراسة الحديث، وشَرَحَ علماء الحديث هذا التناقض بوسائل مختلفة سوف نوجزها فيما يلي:

❖ الحظر المؤقت ونظرية البطلان:

إن معظم المناقشات في توفيق تعارض الأحاديث دارت حول نظرية البطلان وخلاصتها:

كان المقصود ـ على وجه العموم ـ من كراهة النبي ﷺ كتابة الحديث في بادئ الأمر خشية أن يختلط بالسور القرآنية المسجلة[4]، وبعد مدة من الزمن وخاصة عندما زالَ خطر

---

(1) تقييد العلم (69، 70، 97)، البيان والتبيين (2: 42)، جامع بيان العلم (1: 73)، مجلة المنار لمنشئها محمد رشيد رضا (10: 763)، تاريخ بغداد (10: 46)، سنن الدارمي (1: 126 ـ 127).

(2) جامع الترمذي (5: 134) في كتاب العلم.

(3) تأويل مختلف الحديث (365)، سنن الدارمي (1: 125)، جامع بيان العلم (1: 71)، السنة ومكانتها للسباعي (73)، تقييد العلم (74، 87 ـ 81).

(4) الحديث والمحدثون (124)، السنة قبل التدوين (306)، السنة ومكانتها (72)، تقييد العلم (57، 93).

الارتباك والتشويش، سَمَحَ النبي ﷺ للصحابة بتدوين الأحاديث[1]، وآثار منع تدوين الحديث لا تبين سبب ذلك، ولكن ما ذكر مجرد سبب ثانوي يمكن تفسيره بأن المنع كان سابقاً في نشأته جواز الكتابة لأقوال النبي ﷺ[2]، وعليه فحظر الكتابة كان مؤقتاً، ورفع هذا الحظر بجواز التدوين بعد ذلك، والحديث الخاص بعزم النبي ﷺ على كتابة شيء ما وهو على فراش الموت[3]، يؤكد ويدعم هذه النظرية، وبعد أن استشهد أبو زهو بهذه الحادثة، ذكر أنها تبين بوضوح أن التصريح بتدوين الحديث يجب أن يلغي الحظر[4].

بيد أن الشيخ محمد رشيد رضا وأتباعه يرون أن الآثار التي منعت تدوين الأحاديث أحدث من الأخرى التي أجازت التدوين[5]، ووجهة نظر رشيد لم تجد التأييد الكافي، ورفضها معظم أئمة الحديث، بل وحتى تلميذه «الخولي»[6] تحدى وجهة نظر أستاذه وقبل وجهة النظر التقليدية المؤيدة لتدوين الحديث والقائلة بأن الحظر سبق الجواز[7].

وفنَّدَ السباعي أيضاً آراء رشيد وقال: «إن أفكار رشيد من السهل دحضها بمجرد الإشارة إلى قول النبي ﷺ وهو على فراش الموت»[8].

وعلاوة على نظرية البطلان التي ناقشناها فيما سبق فقد أعطيت تفسيرات أخرى لفهم البعض تناقض أحاديث النبي ﷺ فيما يتعلق بمسألة التدوين وسنناقشها هنا بالتفصيل:

---

(1) الحديث والمحدثون (124)، تأويل مختلف الحديث (365 ـ 366)، علوم الحديث لابن الصلاح (20 ـ 21)، بحوث في تاريخ السنة المشرفة (145)، السنة قبل التدوين (306).

(2) Fazlur Rahman, Islamic Methodology History (36).

وبحوث في تاريخ السنة المشرفة (145)، والسنة ومكانتها (74).

(3) تاريخ الطبري (1: 1806 ـ 1807)، طبقات ابن سعد (2: 2: 36 ـ 38)، علوم الحديث (23).

(4) The Authevticity of the tradition Literature (52).

(5) مجلة المنار (10: 767).

(6) محمد عبد العزيز الخولي في كتابه مفتاح السنة أو تاريخ فنون الحديث. (المترجم).

(7) بحوث في تاريخ السنة (145)، السنة ومكانتها (74)، فضل الرحمن في:
Islamic methodology History (36).

(8) The Authenticity of the Tradition Literature, (54).

❖❖ الحظر على فئة من الناس فحسب:

* مع أنَّ حظر الكتابة قد تم صياغته في شكل مصطلحات عامة إلا أنه لا ينطبق إلا على بعض الصحابة فقط الذين كانوا إما قادرين على حفظ الأحاديث بطريقة جيدة، أو أنهم لم يتدربوا بطريقة متقنة على فن الكتابة[1].

فالصحابة من أمثال عبدالله بن عمرو بن العاص، وآخرين من الذين تمنوا تدوينَ أقوال النبي ﷺ كان مسموحاً لهم أن يفعلوا ذلك.

إن وجود صحف منسوبة لهؤلاء الصحابة مؤشر قوي لإثبات أنَّ أمْر حظر تدوين الأحاديث لم يطبق على هؤلاء الصحابة.

إنَّ تصريحَ النبي ﷺ بكتابة تعليماته ونصائحه «لأبي شاه»[2] يبين أن كتابة الحديث لم يفرض عليها الحظر كلية، إذاً فهذا التضارب لابد أن مرده يرجع إلى سبب محدد سنناقشه الآن.

يعلق ابن قتيبة (م ـ 276) في معرض شرحه للتعارض الواضح بين ما هو مصرح بكتابته من الأحاديث، وبين المحظور، بقوله: إن أمر المنع إما ألغي بالتصريح الأخير بالكتابة فكان آخر الأمرين، أو أن هذا التصريح كان خاصاً بعبد الله بن عمرو بن العاص لأنه اعتادَ أن يكتبَ بالسريانية وبالعربية، في حين كان الصحابة الآخرون باستثناء واحد أو اثنين على درجةٍ تؤهلهم للكتابة[3]، وبمعنى آخر: أن هذا المنع لم يكن دائماً، ولا عاماً ومن جهة أخرى فالأحاديث المصرح بتدوينها تعطي انطباعاً بأن التصريح بالكتابة مُنِحَ لهؤلاء الذين شكوا من ضعف ذاكرتهم، ولهذا فيمكن أن نستنتج أنَّ هؤلاء الذين استطاعوا حفظ أقوال النبي ﷺ في الذاكرة لم يكن مسموحاً لهم بالكتابة.

ومع أن هذه النتيجة من المتعذر الدفاع عنها على أساس أنَّ «أبا شاه» سُمِحَ له بالكتابة، على الرغم من أنه لم يَشْكُ من ضعفِ ذاكرته.

---

(1) السنة قبل التدوين (308).

(2) المحدث الفاصل (34أ)، جامع بيان العلم (1: 70)، تقييد العلم (86) السنة قبل التدوين (308).

(3) تأويل مختلف الحديث (365 ـ 366)، تقييد العلم (9).

❖❖❖ حظر التدوين الرسمي:

إنَّ تحريم النبي ﷺ لتدوين أقواله لا يبدو أنه يشير إلى التدوين بصفة عامة، لأنه على الأقل كانت هناك فئة قليلة من الصحابة كتبوا بالفعل أقواله ﷺ، ولكن هذا يعني منع الناس إلى حد ما من تخصيص سجل رسمي لأقواله ﷺ على غرار القرآن[1]. وهذا يتضح من الأثر التالي: (لا تتخذوا للأحاديث كراريس ككراريس المصحف)[2].

وربما يرجع هذا الحظر على التدوين الرسمي أنه لا يوجد قاعدة محددة يمكن أن تتخذ أساساً لحفظ أحاديث النبي ﷺ ولكن الحقيقة أنه بعيداً عن أي محاولة جماعية محددة لتقنين أقواله وأفعاله ﷺ فإنَّ الصحابة احتفظوا بأحاديث مكتوبة على الأقل لاطلاعهم الشخصي[3].

❖❖❖ حظر تسجيل القرآن والحديث على نفس الصحيفة:

يعتقد أنَّ الحظر كان يشير إلى منع تدوين الحديث على نفس الصحيفة التي اعتادوا أن يدونوا عليها القرآن[4]، ويبدو هذا التفسير مقنعاً لأنه ذكر كلمة قرآن مرتين في نص منع كتابة الحديث[5] وأكثر من هذا فحقيقة أن السور القرآنية كانت لا تزال في مرحلة التنزيل والوحي ولم يكتمل بعد نَصُّه النهائي، وكان عرضةً للاختلاط بأقوال النبي ﷺ {لأنه كان الناطق بلسان كل من القرآن والحديث } يجعل التفسير السابق مقبولاً.

وعلى الرغم من أننا لا نعرف تحديداً متى بدأ منع التدوين على الصحيفة نفسها، إلا أن الحدث التاريخي الذي حصل في السنة السابعة والثامنة من الهجرة يعطينا التاريخ المحتمل لصدور أمر المنع، ويذكر أنَّ بعض البحارة اليمنيين زاروا النبي ﷺ واعتنقوا

---

(1) The Authenticity of the Tradition Literature, (54).

(2) السنة ومكانتها (74)، تقييد العلم (47).

قلت: هذا الأثر منسوب للضحاك. (المترجم).

(3) السنة ومكانتها (74)، و The Authencity of the Treadition Literature, (54)

(4) علوم الحديث لابن الصلاح (20)، الحديث والمحدثون (124)،

The Authencity of Traditional Literature (51).

(5) ويقول الحديث «لا تكتبوا عني أي شيء عدا القرآن، ومن كتب شيئاً عني عدا القرآن فليمحه» انظر جامع بيان العلم (1: 63).

الإسلام، وكان بعضهم يعرف القراءة والكتابة، فأعطاهم النبي ﷺ نسخاً قليلة من بعض السور القرآنية ليقرؤوها ويحفظوها عن ظهر قلب، وحدث أن قام بعض رجالهم بكتابة أقوال النبي ﷺ على هوامش صفحات النسخ القرآنية التي معهم، وهنا منعهم النبي ﷺ من تسجيل أقواله على هذه النسخ[1].

وفي ضوء الأحداث التاريخية السابقة يمكن أن نقول: إن المقولات التي حرمت كتابة الأحاديث، على الرغم من صياغتها بشكل عام، فإنها تشير إلى تحريم كتابة الحديث على نفس الصحيفة التي كتب عليها القرآن. والمنع كان في الواقع ضماناً لعدم اختلاط ما هو غير قرآني بما هو قرآني، حتى لا يحدث اختلاط في عقل القارئ.

والحديث السابق أيضاً يعطينا تاريخاً محتملاً لمنشأ منع كتابة الحديث[2].

ج ـ الغرض من حظر الكتابة:

مما لا شكَّ فيه أنّ هناك شبه إجماع على أنّ منع كتابة الحديث قد نُسِخَ بالتصريح بجوازِ كتابته وتم كتابة بعض أحاديث النبي ﷺ في أخريات حياته.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن: لماذا لم يمنع النبي ﷺ كتابة أقواله بطريقة حاسمة؟

يختلف العلماء حول تحقيق دوافع النبي ﷺ في ذلك، ولكن الأسباب المحتملة المتعلقة بكراهة كتابة الأحاديث سنوضحها كالآتي:

❖ المحافظة على نقاء النص القرآني:

يقال إن الدافع الأساسي وراء تحريم النبي ﷺ لكتابة أقواله، هو المحافظة على نَقاءِ النصِّ القرآنيّ[3]، ففي المرحلة الأولى من نزول الوحي كان هناك خوف من أن كلماتِ النبي ﷺ ربما تختلط بالنصوص القرآنية، وهذا الغرض كان قائماً على سببين منطقيين:

(أولهما) أن كلمات النبي ﷺ كانت تعتبر أقوالاً مأثورة بالنسبة للصحابة المخلصين الذين تمنوا أن يكتبوها بعد كتابة الحكمة في العصر الجاهلي، ولأن الناطق بلسان كل من

---

(1) صحيفة همام بن منبه (64).

(2) السنة ومكانتها (72)، تذكرة الحفاظ (3: 152).

(3) السنة ومكانتها (72)، تقييد العلم (57: 93)، تذكرة الحفاظ (3: 152).

القرآن والحديث كان الشخص نفسه وهو النبي ﷺ، فكان هناك احتمال بأن بعض العبارات القرآنية تؤخذ على أنها أقوال النبي ﷺ.

(ثانيهما): لقد تعود بعض الصحابة أن يكتبوا أحياناً كلمات النبي ﷺ على فراغ هوامش نفس الصحيفة التي كُتِبَ عليها القرآن، ولهذا كان هناك احتمال كبير أن يختلط النص القرآني بأحاديث النبي ﷺ، ولهذا منع كتابة الأحاديث.

ـ وفضلاً عن هذا كان هناك أشخاص قلة فقط في ذلك الوقت هم الذين يملكون فطنة التمييز بين الآيات القرآنية وأقواله النبي ﷺ، وفي ظل هذه الظروف حظر النبي ﷺ على أصحابه تدوين أقواله في هذه المرحلة المبكرة.

❖ عدم التنافس مع القرآن:

من المحتمل أن التحريم بكتابة الحديث كان يقصد به الحفاظ على هيئة وشكل الأحاديث باعتبارها أقل منزلةً وشأناً من النص القرآني[1] أو كما قال براون: «بسبب الخوف من أن تستغل الأحاديث بصورة تضر كتاب الله كنصوص هذه الأحاديث التي تعد غير جوهرية بالنسبة للقرآن» ولهذا كان المنع[2].

ونحن نعرف أنه لم يكن هناك قيود على كتابة القرآن بل على العكس كان يعين الكتبة لكتابة الوحي، إلا أنَّ وضع الحديث كان مختلفاً، فكان لا يعطى نفس الأهمية التي حَظِيَ بها القرآن لأنه لو تم إعطاء الاهتمام نفسه للأحاديث، فستدخل في منافسة وصراع مع القرآن. ولهذا لم يكن هناك أي تسجيل رسمي للأحاديث وعليه منع النبي ﷺ كتابة أقواله.

❖❖❖ عدم انصراف الناس عن القرآن:

طبقاً لما ذكرهُ بعضُ أئمَّةِ الحديث، كان الغرضُ من منع كتابة الأحاديث هو الحفاظ على الاهتمام النشط من جانب الذين هداهم الله إلى القرآن[3] أخيراً، ولأنَّ القرآن كان لا يزال في مرحلة الوحي ولم يجمع بعد، فكان ينبغي أن يعطى مزيداً من الاهتمام للقرآن عن أحاديث الرسول ﷺ، هذا فضلاً عن أن كلمات النبي ﷺ كان لها القدر نفسه

---

(1) المحدث الفاصل (37أ).

(2) تاريخ فارس (1: 273).

(3) تقييد العلم، وبحوث في تاريخ السنة المشرفة (144 ـ 145).

وكانت تعد أقوالاً مأثورة، فكان تسجيلها وكتابتها خاصة بعد تقليد تسجيل الأقوال والحكم المأثورة في العصر الجاهلي، من المحتمل أن يصرِفَ اهتمامَ المسلمين عن المصدر الأول للتشريع، ألا وهو القرآن الكريم، ولهذا منع النبي ﷺ الصحابة من أن تعطي للحديث الاهتمام القوي نفسه مما يؤدي إلى إهمال القرآن[1]، وعلى النقيض فبينما اتخذت الترتيبات الرسمية لتسجيل الوحي منع الصحابة من تسجيل أقواله ﷺ، وتبنى أبو بكر وعمر نفس السياسة في إعطاء مزيدٍ من الاهتمام للقرآن، فالخليفة عمر على سبيل المثال منع أثناء خلافته مجموعة من الصحابة من قراءة الحديث على قُرَّاءِ القرآن من العراق، خشيةَ أن يهتموا بالحديث ويبعدوا عن القرآن[2].

واهتمَّ عمر شخصياً مدة طويلة نسبياً بفكرة تجميع مجموعة الأحاديث الموثقة، ولكنه تخلى عنها بعد ذلك[3] ربما معتقداً أنه تؤدي إلى بُعْدِ النّاس عن القرآن.

8 ـ صحة النصوص المقيدة للكتابة:

لقد حَدَّدَ أئمة الحديث الأسباب المحتملة لكراهة النبي ﷺ كتابة الحديث على فرض أن هذه الأحاديث صادقة وصدرت عن النبي ﷺ، ولكن إذا نظرنا إلى الأحاديث المقيدة للكتابة نظرةً نقدية، فيبدو أن هذه الأحاديث باستثناء واحدٍ تفتقر إلى الرواة الصادقين، ومن ثمَّ فهي عرضة لأن تكون موضع رفض.

إن رواة الأحاديث المقيدة للكتابة هم: أبو سعيد الخدري، وأبو هريرة، وزيد بن ثابت؛ فحديث أبي سعيد الخدري كانت له روايتان:

(الأولى): نقلها أحد الرواة غير الصادقين يسمى عبد الرحمن بن زيد أحد الضعفاء[4] ومن ثم فهذه الرواية غير مقبولة[5].

---

(1) المحدث الفاصل = مخطوط (37أ).

(2) جامع بيان العلم (2: 120 ـ 121)، توجيه النظر (18).

(3) كتاب العلم لأبي خيثمة، زهير بن حرب، لوحة (4أ)، طبقات (3: 1: 206).

(4) طبقاً لكلمات ابن حيان عنه: كان ممن يقلب الأخبار، وهو لا يعلم، حتى كَثُرَ ذلك في روايته من رفع المراسيل، وإسناد الموقوف، فاستحقَّ الترك. تهذيب التهذيب (6: 178 ـ 179).

(5) تأتي بعد قليل الرواية الثانية لحديث أبي سعيد الخدري. (المترجم).

(أما الناقل الثاني) الأساسي فهو أبو هريرة وكان في إسناد روايته عبد الرحمن هذا فهذا الحديث أيضاً ضعيف وفقاً لهذه القاعدة ويمكن أن نعتبره حديثاً ضعيفاً.

وأخيراً رواية زيد بن ثابت التي تعد نوعاً من الحديث المرسل[1] والتي لا يمكن أن تسمى أحاديث موثقة وصحيحة[2] فضلاً عن أن زيداً نفسه كان من المؤيدين لكتابة الحديث. إذاً فكيف يروي أحاديث تمنع الكتابة عن النبي ﷺ؟

بهذا يبقى لنا رواية أبي سعيد الخدري التي تستحق النظر والدراسة ومع أن هذه الرواية قد أعلن البخاري عدم صدقها، إلا أن هذا الحديث اعتبره بعض الثقات الآخرين بما فيهم مسلم صحيحاً[3]، إذن فهي الرواية الوحيدة التي تتمثل فيها الأحاديث المانعة للكتابة، ويمكن أن يكون لهذه الرواية العديد من التفسيرات.

ففضلاً عن نظرية البطلان والتي طبقاً لها يُنْسخ هذا الحديث بالأحاديث التي تلت ذلك، وصرحَ فيها بالكتابة، يمكن شرح الرواية السابقة من عدة زوايا كذلك.

ففي إحدى الروايات يقول أبو سعيد:

«استأذنت رسول الله ﷺ أن يأذن لي أن أكتب الحديث فلم يأذن لي» وقال البخاري: «فأبى أن يأذن لي»[4].

وفي مقابل هذا وجدنا حديثاً يسمع فيه النبي ﷺ لعبدالله بن عمرو بن العاص ليكتب الحديث عنه[5] وبمقارنة هذين الحديثين بصفة خاصة وكل الأحاديث المصرح فيها بالكتابة غير المصرح فيها بصفة عامة، ويمكن أن نستنتج أنه في حين صُرح لبعض

---

(1) الحديث المرسل هو الذي إسناده غير كامل، حيث يسقط منه اسم الصحابي، فيعرف بالمرسل. قواعد التحديث (114).

(2) يقول مسلم: الحديث المرسل غير مقبول. مقدمة الصحيح (15).

(3) الباعث الحثيث (149)، فتح الباري (1: 218)، علوم الحديث لابن الصلاح (20)، تقييد العلم (29 ـ 32).

(4) سنن الدارمي (1: 119) السنة قبل التدوين (306) المحدث الفاصل (36أ)، تقييد العلم (32 ـ 33)، جامع الترمذي (10: 133 ـ 134) في كتاب العلم.

(5) المحدث الفاصل (34أ)، وانظر أيضاً: «تقييد العلم» (69).

الصحابة بالكتابة، لم يصرح لآخرين، ولسوء الطالع فإن حديث أبي سعيد وقع في الفئة الثانية، وهذا يثبت أن حظر الكتابة لم يكن يأتي في حالٍ من الأحوال أمراً مطلقاً.

وفي رواية أخرى يقول أبو سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ: اعتدنا ألا نكتب شيئاً سوى القرآن والتشهد[1] «ففي هذه الرواية ضمَّ التشهد ضمنَ النصوص المسموح بكتابتها، ولأن التشهد ليس حديثاً ولا نصاً قرآنياً وسُمِحَ بتدوينه، إذاً فلا يمكن أن ندعي أن النبي ﷺ منع تدوين أي شيء عدا القرآن الكريم، ولهذا فالنقد الموضوعي المبني على متن الحديث يبرهن على ضعف هذه الرواية».

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن أبا سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ في الوقت الذي رَفَض أن يملي أحاديث النبي ﷺ لتلاميذه لم ينقل الأحاديث التي حظر فيها الكتابة من النبي ﷺ وقال: { عندما سأله تلاميذه أن يكتبوا عنه }[2]:

«تريدون أن تجعلوها مصاحف! فإنَّ نبيكم ﷺ، كان يحدثنا فاحفظوا منا كما حفظنا»[3].

ويبدو من حديث أبي سعيد أن عدم كتابة الحديث كان بالنسبة له مسألة شخصية، ولم تكن بأوامر النبي ﷺ.

وهذا دليل آخر على حقيقة أن الحديث المانع للكتابة، والذي رواه على مسؤوليته يعد حديثاً خاصاً به، وليس لعامة المسلمين.

وفي ضوء المناقشة السابقة يمكن أن نقول: إنه من غير المحتمل أن يكون النبي ﷺ أصدر أمراً مشدداً بخصوص عدم كتابة أقواله، والحقيقة الجلية أنه شجع القراءة والكتابة، وأرسل الخطابات، وأصدر النشرات، وأملى بعض القوانين، ووصف وصفاً كاملاً، ونحن نميل إلى الاعتقاد بأنَّهُ حتى لو كان هناك أوامر بكراهة كتابة الحديث في البداية فإنها اختفت بعد ذلك، وأسباب كراهة كتابة الحديث في البداية يجب أن نبحث عنها في موضوع آخر غير حديث النبي ﷺ.

---

(1) تقييد العلم (93).

(2) الزيادة ليست في الأصل، وأضفتها لتوضيح النص التالي. (المترجم).

(3) جامع بيان العلم (1: 64)، علوم الحديث لابن الصلاح (20)، تقييد العلم (36 ـ 38) كتاب العلم لأبي خيثمة (8ب)، المحدث الفاصل (36أ).

9 ـ أسباب كراهة تدوين الحديث:

إنَّ الدراسة الجادة لأحاديث النبي ﷺ التي حظر فيها كتابة أقواله، وكذا مقولات أئمة الحديث، تكشف عن حقيقة هامة، وهي أنَّ الاتجاه المعارض لكتابة الحديث والذي استمر وقتاً من الزمن لم يكن نتيجة لتحريم النبي ﷺ لتدوين أقواله[1].

وكان من جهة أخرى نتيجة لعوامل متعددة يمكن توضيحها في النقاط الآتية[2]:

1 ـ الخوف من أن أقوال وكلمات النبي ﷺ قد تدنس وأن الكتب التي سجلت فيها هذه الأقوال ربما لا تعامل بما يستحق من التقدير والإجلال[3].

2 ـ الخوف من أن أحاديث النبي ﷺ يمكن أن تضاهي كتاب الله وتحوز اهتماماً خاصاً تجعل الناس ينكبون عليها ويتركون كتاب الله[4].

3 ـ ولكونه أدباً دينياً، فمن المفترض أن يُحفظ عن ظهر قلب بعد التعود على اكتساب التعاليم الدينية شفهياً.

4 ـ الخوف من أنَّ الكاتب الذي يعتمد على الكتابة ينسى محتويات النص[5]، واعتقد العرب الذين لم يوافقوا على كتابة الأحاديث ورأوا أنه من الأفضل الحفاظ على الأحاديث من خلال الحفظ، فهم كانوا من الرأي القائل بأنَّ المعلومات التي تدون تكون عرضة للنسيان، لأن الكاتب الذي لديه الثقة بأنه سوف يتعلم هذه الأحاديث في المستقبل لا يكون لديه غالباً النية في أن يمارس ذلك في المستقبل، فالشاعر الخليل[6]

---

(1) يرى موير (Muir) أن قصة منع كتابة الحديث غير جديرة بالثقة. انظر:
Value of early Mahometan Historical Sources, (114).

(2) لأنني أوجز العوامل المسؤولة عن الاتجاه المعارض لكتابة الحديث ببعض النقاط التي سبق أن ذكرتها، لا أجد مناصاً في إعادة سردها ملخصة هنا.

(3) المحدث الفاصل (37أ) و(History of Persia (1: 273 و Muslim Theology (76).

(4) تقييد العلم (49 ـ 51)، والمصدران المذكوران في الحاشية السابقة.

(5) صحيح ابن حبان (1: 63)، تقييد العلم (9 ـ 10)، جامع بيان العلم (1: 68)، مجلة المنار لمنشئها السيد محمد رشيد رضا (10: 758)، طبقات ابن سعد (4: 189)، كشف الظنون (1: 33)، المحدث الفاصل (37أ)، السنة قبل التدوين (308).

(6) هو الخليل بن أحمد الأزدي اليحمدي، كان إماماً في النحو، وهو مستنبط علم العروض. (المترجم).

(المتوفى 170/ 175هـ) عبر عن آرائهم بهذه الكلمات «إن المعرفة ليست ما تحتويه الكتب، ولكن ما وقر في الصدر».

ليس بعلمٍ ما حوى القمطر ... ما العلم إلا ما حواه الصدر[1]

5 ـ الخوف من أن تصل أقوال النبي ﷺ الشريفة إلى أيد غير أمينة[2]، ويترتب على هذا الغرض أن عدداً من أئمة الحديث إما حرقوا ما يتعلق بهم، أو تخلصوا من محفوظاتهم بدفنها، أو تركوا وصيةً يطلبون فيها من أتباعهم أن يفعلوا ذلك، ولكن لو كان عندهم ثقة من أن الكتب ستصل إلى أيدٍ أمينة بعد موتهم فلن يتخلصوا من كتاباتهم.

ويمكن أن نستشهد بمثال رواه لنا أبو قلابة (المتوفى سنة 104هـ) الذي تَرَكَ وصيةً وهو على فراش الموت يقول فيها: «أرسل كتبي إلى أيوب (المتوفى سنة 131هـ)، أو احرقها»[3].

6 ـ الخوف من أن يضل الناس أو يحذوا حذو هؤلاء الذين لجأوا إلى كتابة الكتب الدينية في العصور القديمة[4]. وقد ذُكِر هذا في البيان لابن سيرين (المتوفى سنة 110هـ) «احترس من الكتب فقد ضل أجدادك الطريق بسبب الكتب»[5].

ويقول ابن عون: (المتوفى سنة 151هـ) أحسب هذه الكتب ستضل الناس[6].

وأخيراً فقد ذكر أن ابن عُلية البصري (المتوفى سنة 200هـ) ذكر أن الصحابة لم يوافقوا على الكتابة لأن آباءهم ضلوا الطريق عندما اتخذوا الكتب.

7 ـ الخوف من أن يختلط النص القرآني بالحديث ويُحْدِث هذا تشويشاً في ذهن القارئ[7].

8 ـ الخوف أن تصرف الأحاديث اهتمام الناس عن القرآن[8].

---

(1) المحدث الفاصل (37ب)، جامع بيان العلم (1: 68)، مجلة المنار (10: 758).

(2) تقييد العلم (61).

(3) طبقات ابن سعد (7: 1: 135).

(4) تقييد العلم (57).

(5) تقييد العلم (57)، وقد ذكر النص بالمعنى.

(6) الموضع السابق.

(7) جامع بيان العلم (1: 68) و(2: 121)، تقييد العلم (9، 12، 57).

(8) تقييد العلم (57)، المحدث الفاصل (37أ)، تذكرة الحفاظ (3: 152).

9 ـ ويذكر لنا حسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي (المتوفى سنة 360هـ) عدة أسباب لعدم موافقة المسلمين الأوائل على كتابة الحديث.

(منها) قرب عهدهم من النبي ﷺ[1].

(ومنها) تقارب الإسناد[2].

(ومنها) قرب الحوادث[3].

(ومنها): قلة الاختلاف والواقعات وتمكنهم من الرجوع إلى الثقات[4].

(ومنها) أن النبي ﷺ كان وثيق الصلة بالصحابة فلم يشعروا على الإطلاق أنهم بحاجة إلى كتابة أقواله ﷺ في كتبٍ، فكان بإمكانهم أن يستشيروه في كافة مشكلاتهم اليومية، فضلاً عن أنه كان يوجد ثقات صادقون بين الصحابة أنفسهم يمكن استشارتهم فيما يتعلق بأحاديث[5] النبي ﷺ زد على ذلك أنه نادراً ما كان يحدث خلاف بين المشرعين حول المسائل التشريعية في ذلك الوقت، ولهذا لم يكن هناك محاولة جماعية لتنظيم القوانين الإسلامية في هذه المرحلة[6].

10 ـ لقد خشي الصحابة أن تختلط آراؤهم الشخصية بأحاديث النبي ﷺ ولهذا توقفوا عن كتابة الأحاديث[7]، وخشي شباب الصحابة والتابعين أن تختلط آراؤهم الشخصية بخصوص بعض المسائل التشريعية بأحاديث النبي ﷺ ولهذا ترددوا في كتابة وتسجيل الأحاديث، ولقد وجدنا أن زيد بن ثابت الذي وُضِعَ خطأً في فئة معارضي كتابة الأحاديث كان في الواقع من مؤيدي كتابة حديث النبي ﷺ، وأما تردده في كتابة الأحاديث فكان مرده إلى حرصه الشديد خشية أن يؤخذ رأيه خطأ على أنه حديث للنبي ﷺ، وهذا

---

(1) المحدث الفاصل (37أ)، كشف الظنون (1: 33)، تقييد العلم (9).

(2) المصادر الثلاثة السابقة.

(3) كشف الظنون (1: 33).

(4) المصدر السابق.

(5) المصدر السابق أيضاً.

(6) كشف الظنون (1: 33)، ويقول (Robson): إن الحديث هو الدعامة الثانية في الإسلام. عالم الإسلام عدد كانون الثاني 1951، ص (25).

(7) علوم الحديث لابن الصلاح (42)، جامع بيان العلم (2: 134 ـ 135).

واضح من اتجاهه الذي أظهره في بلاط مروان وذلك عندما جعله يروي الأحاديث وأجلس كاتباً وراء ستار لكي يكتب ما يقوله دون علم زيد، وحينئذٍ طلب منه زيد أن يمحو هذه الأحاديث لأنه من الجائز أن تكون حوت بعضاً من آرائه[1].

وكان هذا أيضاً اتجاه سعيد بن المسيب (المتوفى سنة 94هـ) الذي مزق بعض أوراق صحيفته خشية أن تكون قد احتوت على بعض آرائه[2].

11 ـ أما عن الذاكرة الحافظة القوية[3] التي أوسعناها بحثاً ومناقشة فمن الجدير بالذكر أن نقول هنا: إن العرب كانوا في الواقع جنساً يجيد الكلام، ولهذا احتفظوا بمعلوماتهم في خزائن القلوب الآمنة، على الرغم من أن الكتابة كانت معروفة لهم، وفي ظل هذه الظروف كانت كراهتهم لكتابة أحاديث النبي ﷺ معروفة تماماً.

12 ـ قلة الكتبة: على الرغم من حقيقة معرفة العرب لفن الكتابة قبل الإسلام بوقت طويل، وإعطاء النبي ﷺ اهتماماً يفوق الوصف لتقدم هذا الفن وتطوره، إلا أنَّ عددَ الكتبة من الصحابة المتمكنين من فن الكتابة كان لا يزال محدوداً. ولهذا فأحد الأسباب التي أدت إلى عدم كتابة الحديث كان بدون مبالغة ندرة الكَتَبَةَ في تلك العصور القديمة[4].

13 ـ غموض الكتابة العربية: الخوف من أن يظل نص الحديث غامضاً كان اعتقاداً أدى إلى تشجيع العرب، على تسجيل أحاديث النبي ﷺ ويعبر عن ذلك ماكدونلد Macdonald بقوله: «إن السمة الخاصة والمتميزة بالصعوبة للكتابة العربية وخاصة عند كتابتها بدون نقط مميزة لها، جعلها غير واضحة إن لم تكن مستحيلة في فهم نصوص الأحاديث»[5] على الرغم من أن استخدام النقط كان مستخدماً منذ وقت مبكر في عصر النبي ﷺ نفسه[6].

---

(1) طبقات ابن سعد (2: 2: 117)، تقييد العلم (20).

(2) جامع بيان العلم (2: 144)، تقييد العلم (20).

(3) مناهل العرفان (286)، قواعد التحديث (45 ـ 46).

(4) فتح الباري (4)، قواعد التحديث (45 ـ 46).

(5) Muslim Theology (76).

(6) صحيفة همام بن منبه، ص (9)، رقم (2).

14 ـ منع الفاروق عمر: وعامل رئيس آخر لعدم تدوين أحاديث النبي ﷺ في وقت مبكر كان الأمر المشدد الذي أصدره عمر بمنع الصحابة من تسجيل أقوال النبي ﷺ ووجدنا أن الفاروق عمر أثناء خلافته نفذ هذا الأمر بنجاح، وفي سعيه لتنفيذ سياسته حرق بعضاً من مجموعات الأحاديث المكتوبة، ولهذا فتسجيل أحاديث النبي ﷺ في عهد عمر تم بمعدل متواضع للغاية.

ولا نجد غضاضة هنا في أن نناقش وجهة نظر شبرنجر (Sprenger) بخصوص هدف الفاروق عمر من إصدار أمر منع كتابة الأحاديث فقد ذكر «أن الفاروق عمر لم يهدف إلى تعليم العرب البدو فحسب، بل تمنى أن يحافظ على شجاعتهم الجبارة وإيمانهم الديني القوي ليجعلهم حكاماً للعالم، والكتابة واتساع المعرفة لا تتناسب مع الهدف الذي سعى من أجله».

وأضاف قائلاً: بأن الفاروق عمر أراد أن يميز العرب عن الأمم الأخرى، وتمنى أن تكون الطريقة العربية في حفظ معتقداتهم مختلفة عن طريقة اليهود والمسيحيين، وعليه فإن (Sprenger) يرى أن العرب نصحهم عمر بحفظ التعاليم الدينية شفهياً على خلاف ما درج عليه اليهود والمسيحيون الذين استخدموا الكتابة لهذا الغرض. ويعتقد (Sprenger) أنه لتحقيق الهدف الذي ذكرناه سابقاً منع الفاروق عمر رفاقه من الصحابة من تسجيل أحاديث النبي ﷺ[1].

وإذا تناولنا هذا الموضوع من منظور تاريخي، فإن هدف عمر من التصدي لكتابة الحديث لا يبدو أنه يتفق والرؤيا التي طرحها (Sprenger)، وفي الواقع أنَّ منعه عمل مجموعة متميزة من الحديث[2] كانت خارجة تماماً عن الاعتبارات الدينية[3]. فقد كان هدفه الخاص من جمع أقوال وأفعال النبي ﷺ في شكل مكتوب وكان يتضرع إلى الله في أن يجعل هدفه هذا قدوة[4] عامة للمسلمين فمقولته هذه مؤيدة لتسجيل الأحاديث[5]

---

(1) Origin Of Writing... Jasb xxv, 1956, p. (379).

(2) طبقات ابن سعد (3: 1: 206)، (5: 140).

(3) طبقات ابن سعد (3: 1: 206)، (5: 140) ودراسة في أدب البرديات (1: 7).

(4) كتاب العلم لأبي خيثمة لوحة (4أ)، طبقات ابن سعد (3: 2: 206).

(5) يذكر عن الفاروق عمر قوله: «قيدوا العلم بالكتب» انظر المحدث الفاصل (36أ)، جامع بيان العلم (1: 72)، العلم لأبي خيثمة (2ب)، تقييد العلم (88). سنن الدارمي (1: 127).

واهتمامه الشخصي بدراسة ونشر تعاليم النبي ﷺ[1] كل هذا يؤكد على أنه لم يكن ضد الكتابة كما ذكر، وما يمكن أن نقوله عموماً عن سياسته في هذه الناحية: هو أنه كان حريصاً على إضفاء جلالة للقرآن والاحتفاظ بعلو شأنه ومنزلته عن الحديث، وتعلياته إلى المجموعة التي ذهبت إلى العراق بألا يرووا أحاديث كثيرة على قراء القرآن، ففي تلك المدينة[2] تبين أنه كان مهتماً أساساً بالمحافظة على النص القرآني ولم يرغب في أن يعطي الحديث مكانة ومنزلة لا يستحقها. والحقيقة أنه منع الناس من إعطاء الاهتمام نفسه لدراسة الحديث ونقله لأنه كان يفترض مسبقاً أن شيوع وانتشار الحديث بهذه الدرجة ربما يؤثر على مكانة ووضع القرآن.

وبالنظر إلى الاهتمام الذي أولاه الفاروق عمر بنشر المعرفة الدينية وذلك من خلال تعيين المدرسين في المدن[3] المختلفة. فيبدو أنه من غير المنطقي أن يحرم العرب من المعرفة فما بالك بأقوال النبي ﷺ. وعلى النقيض من ذلك فقد شجع عمر العرب على أن يسلحوا أنفسهم بالمعرفة وقال: «تفقهوا قبل أن تسودوا» ويعني بهذا أن يطوروا ملكة فهمهم قبل أن يصبحوا قادة[4]، أما بالنسبة لتعلياته فيما يتعلق بالكتابة فقد ذكر أنه قال: «قيدوا العلم بالكتاب»[5].

أما عن سبب منعه لكتابة الحديث فلم يكن بسبب الحفاظ على نقاء النص القرآني فحسبَ بل يرجع إلى رغبته في الحفاظ على الأدب الإسلامي الذي أُخرِج في هذه الفترة نقياً خالياً من الروايات التاريخية، وإذا انتقلنا إلى اهتمامه بالحديث. فيبدو أنه كان قلقاً على هذه الكثرة من الأحاديث المتعلقة بالمعتقد والديانة، وهذا الكم من الأحاديث التي أسيء فهمها ونقلها وكانت عُرضة للتزييف.

---

(1) سنن الدارمي (1: 85)، طبقات ابن سعد (3: 1: 201، 243)، جامع بيان العلم (2: 122 ـ 123)، تقييد العلم (88).

(2) جامع بيان العلم (2: 120 ـ 121)، المحدث الفاصل (65ب) تذكرة الحفاظ (1: 7) و(3: 152).

(3) طبقات ابن سعد (3: 1: 202، 243).

(4) سنن الدارمي (1: 79)، كتاب العلم لأبي خيثمة (2ب).

(5) المحدث الفاصل (36أ)، جامع بيان العلم (1: 72) كتاب العلم (2ب)، تقييد العلم (88)، سنن الدارمي (1: 127).

وكانت هذه النوعية من أحاديث الترغيب والترهيب شائعة بين عامة الناس، ولهذا حَذَّرَ الناس ومنعهم من نشر هذه النوعية من الأحاديث لأن هذا سيصرفهم عن القرآن.

وعلى الرغم من أن مصطلح المنع قد تم صياغته بصورة عامة، إلا أنه يبدو أنه كان يشير بذلك إلى هذه النوعية من الأحاديث غير الصحيحة. وهذا الاتجاه أوضحه ابن عبد البر الذي قال: «إن منع الفاروق عمر يرجع إلى تلك الأحاديث التي لا يمكن استخدامها للأغراض التشريعية ولا تصلح لأن تكون سنة مما لا يفيد حكماً ولا يكون سنة»[1].

ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ أن تحريم عمر يشير إلى الرواية أي رواية الحديث لا إلى كتابته، فضلاً عن أن التحريم لم يكن جامعاً مانعاً، فقد قال: «أقلوا الرواية» وهذا يعني أن يقللوا من عدد الأحاديث[2] التي يروونها، ويقال أن النص الذي ذكر به أنه سَجَنَ الرواة كثيري الرواية من الأحاديث، يشير إلى الرواية لا الكتابة.

ويبدو من كل هذا أن الفاروق عمر كان مؤيداً لتسجيل الحديث، على الرغم من أنه لم يدعم ذلك خشية أن يصرف انتباه الناس عن دراسة القرآن، ومن المؤكد أيضاً أن موقفه المعارضة للكتابة لم يكن قائماً على أساس منع النبي ﷺ تسجيل الحديث كتابةً، لأنه لو كانت هذه هي القضية لكان النبي ﷺ عبَّر عنها صراحة، ولهذا فقد كانت مناقشة فعالة تلك التي تناولنا فيها أحاديث النبي ﷺ التي منع فيها الكتابة باعتبارها أحاديث غير متعلقة بالأحكام الشرعية.

ووجدنا عوامل عديدة غير أحاديث منع الكتابة تعد مسؤولة عن هذا الموقف المعارض لكتابة الأحاديث بين المسلمين الأوائل، وفي حين يعارض بعض الرجال الكتابة لأنهم يعتبرونها وعاءً رديئاً للمعرفة[3] اعتقد آخرون أنهم لو كتبوا فلن يتحقق الهدف من الكتابة؛ لأنَّ الكاتب بعد أن يضع محتويات مادته في شكل كتابي سيعتمد اعتماداً كاملاً على

---

(1) جامع بيان العلم (2: 121).

(2) المحدث الفاصل (65ب)، جامع بيان العلم (2: 121).

(3) أثر عن سفيان الثوري ذم الاتكال على الكتاب، وأمره بالحفظ وقال: «بئس مستودع العلم القراطيس». انظر تقييد العلم (58).

النص المكتوب وينسى محتوياته[1]، بالإضافة إلى أنَّ الكتابة لم تكن موضعاً لقبول بعض العلماء الذي خشوا لو أنَّ الأحاديث المكتوبة وصلت إلى أيدٍ غير أمينة، وما يمكن أن تتعرض له حينئذٍ من سوء استخدامها، ولهذا وجدنا أن المعارضين بدلاً من أن يستشهدوا بنصوص من الأحاديث المانعة للكتابة والتي ذكرها النبي ﷺ، أعطوا أسباباً شخصية لعدم موافقتهم على كتابة الحديث.

وأياً كانت الأسباب الذي أدت إلى كراهية كتابة الحديث، فمما لا شك فيه أن هذه النظرة المعارضة للكتابة استمرت فترة طويلة، على الرغم من أن بعض الرجال استمروا في الكتابة أثناء هذه الفترة، ويبدو أن هذه النظرة المعارضة استمرت لعدة عقود بعد خلافة الفاروق أي لحوالي ثلاثة أرباع القرن الأول الهجري، ومنذ ذلك الحين فصاعداً أخذت الكتابة مكانتها، ومع نهاية القرن الأول الهجري، وفي الربع الأول من القرن الثاني الهجري أصبحت الكتابة عموماً مفضلة على الحفظ، ويعدّ عصر الزهري هو العصر الذهبي للكتابة[2].

وفي الواقع فإنَّ مكانة الكتابة أصبحت موضعاً للاعتراف الفعلي في نهاية العقد الأخير من القرن الأول الهجري، ويمكن أن نستدلَّ على هذا من تعليق أبي طالب المكي الذي قال: «إن الكتابة أصبحت موجودة بالفعل بعد موت الحسن (المتوفى سنة 110 هـ) وابن المسيب (المتوفى سنة 94 هـ)[3].

ومع هذا لا يستطيع المرء أن يسلم بأن الكتابة كانت مختفية طوال فترة تفضيل النقل الشفهي للحديث، ففي الواقع أننا عرفنا أن الانتقال المستمر والمكتوب للحديث بدأ من وقت مبكر، بل وحتى في الوقت الذي كانت فيه الكتابة تعدّ جريمة لا تغتفر، كان بعض العلماء يكتبون سراً.

* * *

(1) علوم الحديث لابن الصلاح (78).

(2) دراسة في أدب البرديات العربية (2: 184).

(3) قوت القلوب للمكي (2: 37).